

المستحيل



هذه النسخة حصرياً
لمنتدى المكتبة العربية
[Http://www.TipsClub.net](http://www.TipsClub.net)

إعادة الرفع تمت بواسطة

* محمد بحيرى

شكر خاص لـ / م. حامد بكير

مصطفى محمود

المستحيل

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ..
والبيت خال .. زوجتي عند أمها .. وأنا جالس وحدي .. انصت
إلى صوت تنفس البطي فيخيل إلى أنه صوت رجل آخر غريب
لا أعرفه . ويدعني شعور ثقيل مر بالغربة ..
هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسي .. وانظر وجهاً لوجه في حياتي
وأنا ملها ..

أى حياة !!

إلى لم أعش أبدا ..

ليس في حياتي يوم واحد أستطيع أن أقول أنه كان يومى ..
إلى لا أعيش .. ولكني أتدحرج كحصاة كبيرة ثقيلة .. تسوقني
الوظيفة إلى المكتب .. ويجبرني الزواج إلى البيت .. ويدفعني الملل إلى
المقهى .. ويلقى في الجوع إلى مائدة الطعام .. ويقهرني الغيظ على
التدخين .. ويقذف في التعب إلى الفراش .

خمس وعشرون عاما مرت من عمري كأنها لا شئ .. ازدادت في
الوزن .. في الطول .. في العرض .. ولكني لم أزد في الحياة .
سنة بعد سنة وأنا أغوص في أرض رخوة من الأوامر والواجبات .
والكلمات الغريبة ..

الطبعة الثالثة

١٩٧٧

الواجب .. الأصول .. تقاليد العائلة تحتم .. مركز والدك لا يسمح .. سنك لا يليق فيه كذا .. كرامتك .. ماذا يقول الناس .. كيف تكون نظرة المجتمع إلينا .. الاحترام .. الوفاق يا أخى .. حتى الجانكة التى البسها كانت مسكينة مثل بلا شخصية .. تطول وتقصر وتتسع حسب المؤسفة .. لا بإرادتى .. ولا بإرادة الترزى .. ولكن بإرادة التقاليد ..

فى وقت ما كنت أسك فى بدى منشة .. وفى وقت آخر كنت أسك عصا .. وفى وقت ثالث كنت البس طربوشاً .. والآن تضع لى زوجتى مندبلا فى كمى .. وتحرم على لبس الطربوش كل هذه الأشياء كانت فى الحقيقة تلبسى .. ولا ألبسها .. والحياة كلها كانت تلبسى .. وحركاتى تلبسى .. وأنا أتضام سنة بعد سنة تحت الردم .. تحت ركاب من كلمات كبيرة لزجة ..

أذكر هذا الآن وأنا أتلفت حولى فى حياى .. فى الفرفرات الخمس التى أسكنها ..

إنها غرفات غريبة .. ضيقة .. وسقفها منخفض .. وكل منها توصل إلى الأخرى .. وهذا ليس ذوقى .. فانا أحب الفرفرات الواسعة ذات السقف العالى التى تفصلها المرات والصلالات .. وهى غرفات تضربها الشمس من البين والنبال .. وأنا أحب الفرفرات الرطبة الظليلة ..

إن البيت لا يبدو كأنه بيتى .. لقد اختاره والدى .. اختار المكان والأرض .. وبنى البيت حسب ارادته .. وفصله حسب ذوقه .. واختار الأثاث قطعة قطعة .. حتى الصورة الكبيرة .. النسخة المنقولة عن صورة الميوكندا لدافنتشى .. هو الذى اشتراها بنفسه وأهداها لى

بناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال إنها مثال للذوق الرفيع فى الفن ..

وشعرت من البداية أنها صورة سخيفة قاتمة .. وأن دمها ثقيل .. ولكنى لم أتكلم .. لأنى رأيت من الواجب أن أكون مؤدباً .. وأن أجامل والدى فى هديته وأمتدح ذوقه .. فقلت له : نعم .. أنت على حق أنها رائعة ..

وقال فى زهو العارفين :

- انظر إلى اليدين جيداً ..

ونظرت إلى اليدين جيداً .. فلم ألاحظ شيئاً .. وقال فى انتصار :

- إنها تبتسان .. انظر .. هذا هو الإعجاز فى اللوحة .. إن الرسام

رسم اليدين تبتسان ..

إن فى اللوحة كلها ابتسامة غير منظورة لقد كان الرسام يجلب معه كل يوم فرقة من العازفين لتعزف للجيوكندا وهو يرسمها ليدخل فى قلبها السعادة فتبتسم .. وأنت تحس بالموسيقى .. وتسمعها وأنت ترى اليدين فى وضعها الجميل الباسم ..

وأكبرت فى والدى هذا الإحساس المرهف .. وإن كنت لم ألاحظ أنا أى شئ غير عادى فى الصورة .. وظللت أعيذ على كل ضيف يزورنا هذه القصيدة .. عن الابتسامة غير المنظورة .. والموسيقى .. والإعجاز فيز رأسه تماماً كما هزتها ويقول فى آية .. يا سلام .. حقاً إنها رائعة .. واليدان تبتسان .. تماماً .. يا سلام ..

ويروح بدوره يحكى القصة لصديق آخر ..

وظللت على إكبارى لوالدى .. وذوقه .. ونظرة العميقة الناقدة حتى قرأت مصادفة .. وفى مجلة قديمة .. كل هذا الكلام بالنص .. عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى فى اليدين .. والإعجاز .. الخ .. الخ ..

ولا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة أن الحكاية كلها كلام فارغ متوارث روته الصحف وتناقله القراء .. كل قارى يردده على أنه رأيه الخاص وذوقه .

وظللت من يومها أشعر بالغيظ كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار في غرفة الصالون .. وأتسمر أنى لم أقل رأيى أبداً فيها .. وأنى عشت أردد كلمات غريبة عنها طول عمرى .

وكان من عادة أبى أن يزورنا كل يوم جمعة ليطمئن على .. هكذا كان يقول .. ولكنى أعتقد الآن أنه كان يفعل هذا ليطمئن على نفسه ليرى أن أوامره ما زالت نافذة .. وملاحظاته معمول بها .. الدواليب مغلقة بالمفاتيح .. والمفرش المشمع موضوع على مائدة الطعام .. وأصيص النعناع في البلكون .. والتوافذ كلها مفتوحة لتدخل الشمس .. وأول شئ ينظر إليه عند دخوله هي التوافذ .. فإذا رأى النيش مغلقاً فتحه على مصراعيه وهو يصيح :

- الشمس يابى الشمس .. هذه شمس لا مثيل لها في الدنيا .. إنها أحسن دواء للروماتزم .. افتح النشباك عندك .. أنا قلت ألف مرة افتحوا كل النشبايك ..

ويتسند في الشمس بطرق مفاصله ..

وأبى كان دائماً يشكو من الروماتزم .. ولهذا كان يفتح النشبايك في بيوت أولاده .. في كل وقت .. وفي كل فصل من فصول السنة .. ولو استطاع لسقانا فتجاناً من السلسلات ثلاث مرات في اليوم كما كان يفعل .

ولم يكن يحمدي أن نتحج ونقول أننا أصحاء .. وأننا لسنا مرضى بالروماتزم .. فعنى أن يكون أبى مريضاً بالروماتزم .. أن تكون جميعاً مرضى بالروماتزم .. فأبى مفتش تركى فيه كل أخلاق الأتراك وماغهم

الناشف .. وغرامهم بالأمر والنهى .

وكان يعاملنا نحن أولاده كأئنا نكية .. ويعيش حياته ويعيش لنا حياتنا أيضاً .

لم يحس واحد منا في أية لحظة بأن له كيانه مستقلاً .
أذكر حيناً كنا صغاراً أن أبى كان يحب الشاي فكتت أشرب معه الشاي .. وحيناً تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطبيب شرب الشاي .. أصبحت أشرب الينسون .. لأنه أصبح يشرب الينسون . وظل سلطانه يخلق فوق رأى حتى بعد أن جاوزت سن التلمذة وغرجت من المدارس لأعيش بإيرادى الخاص .

كنت أستشيرهم من تلقاء نفسى كلما وقعت في مشكلة .. كان الخوف ما زال في دمي .. الخوف من الدنيا .. ومن المرأة .. ومن أن أحسم أمراً بإرادتى .. وبدون مشورته .

كان قلبى تأكله الرغبات من الداخل ولكنى لم أكن أجسرو على التفكير فيها وإنشباعها .. وإنما كنت أتردد وأخاف وأجزع ثم أكتفى بأن أفنى ثم أعرب من المشكلة كلها وألوذ بوالدى أطلب نصيحته .. وأترك له حياتى بيت فيها ويختار كما يشاء كأنه الله أو القدر .

وهكذا ظلت حياتى معطلة طوال هذه السنين .. وظللت أعيش طفلاً كبيراً .. يلا قلبى الخوف والاحترام والرغبة ..

ولو سألتنى إن كنت أحب أمينة زوجتى .. لما وجدت جواباً .. فأنا لم أحبها .. ولم أكرهها .. ولم أختارها .. وإنما هي كصورة الجيوكندا وضعا والدى في بيتى .. وقال إنها جميلة ورائعة .. فقلت خلفه كالطفل جميلة حقاً .. ورائعة .. واحتضنتها كما احتضن كل كلمة يقولها أبى . ولكن بقدر الراحة التى كنت أحسها في هذا الحب إلا أنى كنت أحس أنه ليس حى أنا .. وإنما هو حب أبى وذوقه واختياره ..

كان كل شيء حولي لا يمت لي .. كان كل شيء غريباً عني .. حتى ملابسى .. حتى أفعالي .. حتى أقوالى كانت غريبة عني ..
ولكنى لم أكن أدرك مشاعرى بهذا الوضوح في البداية .. لم تكن في ذهني فكرة واضحة عن شيء ..
كنت أعيش في فتور وآلية .. وبلادة .. واستسلام .. حتى مات أبى فجأة ..

وأفقت لأجد نفسي وحدي .. بدون سند إلى جسوارى .. بدون قدر .. بدون إله .. بدون حب .. بدون مبرر لأخى فعل أفعله سوى إرادتى ..
وأين هى إرادتى ؟!

لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية في توقيع شيك .. وأنظر فوق كتفى بين لحظة وأخرى .. أنتظر أن يظهر والدى فجأة لأسأله .. هل من الصواب أم الخطأ .. توقيع هذا الشيك ..
ولم يكن هناك حل ..

كان لا بد لي أن أحل أعبائى بدون معونة أحد ..
وكان هذا يسبب لي قلقاً حاداً قاسياً يجرمنى النوم ..
لقد بلغ ميرائى وحدى من تركه أبى مائة فدان غير المقصارات والأملوك وسندات البنوك .. وهى ثروة كبيرة فوجئت بها ..
وكان معنى هذه الثروة أن أذهب في عشرات المشاوير كل يوم .. إلى البنك .. وإلى البلد .. وإلى البورصة ..

وفي كل مشوار من هذه المشاوير أقابل ناساً لا أعرفهم .. أتناقشهم وأوقع على أوراق .. وأضئ على عقود .. وأبدأ صفقات .. وأنهى صفقات ..
وفي كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أنى وحيد متردد خائف .. وأعود من البنك مبجلب الذهن .. في ظنى أنى قد نسيت شيئاً ..

وقعت في خطأ ما .. أو تورطت في إجراء غير قانونى ..
ولكن بمرور الأيام بدأت أكتشف أن المال في البنوك والإدارات المالية يحفظ نفسه بنفسه .. وإنى لست في حاجة إلى ذكاء كبير لأضاعف أموالى .. فالأموال تتضاعف من تلقاء نفسها في المقصارات والأراضى والبنوك .. وما على إلا أن أنهب أول السنة لأجمع الأرباح وأوقع في دفتر .. وبدأ الخوف يزايلى ..
وبدا ذهني ينصرف إلى أفكار أخرى ..

أفكار لا علاقة لها بالأرض .. والبنك .. والمرحوم والدى .. أفكار لها علاقة بي .. أنا ..
وحينما أحضرت لى زوجتى كوب الشاي منذ أيام .. وقلت لها :
أنا لا أحب الشاي ..
نظرت لى في دهشة واستفهام .. فهى لم تتعود منى أن أقول ..
أنا .. لا أحب ..

تعودت أمينة أن أكل ما تقدمه .. وأشرب كل ما تقدمه ..
ولكنى قلتها ..
قلت .. أنا لا أحب .. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضاً .. لأنى أقول ما في نفسى لأول مرة بدون أن ألقى بالا لأحد ..
واكتشفت في ذلك اليوم عندما دخلت غرفتى وجلست على مكتبى ..
أنى لا أرفض الشاي وحده .. ولكنى أرفض معه أشياء أخرى كثيرة ..
أرفض بيتى وحياتى .. وأمنى أن أصرخ فجأة .. لأقول لزوجتى أنا لا أحبك .. وأقول عن حياتى أنها سخيفة .. وأنزع الصورة المدلاة من الجدار .. وألقى بها في الشارع ..
ولكنى لم أجد الجرأة على أن أقول كل هذا ..

واكتفيت أن أرفض الشاي في عصبية .. وأزججه من أمامي .. ثم أشعل سيجارة ..

وعادت حياتي فجأة أمامي .. كشريط سريع .. حياة سخيفة مثل لعبة مستعارة .. ليس فيها ملامحي .. ليس فيها .. أنا ..

وشعرت بشهوة الطفل في تحطيم أى شئ .. والجري إلى الخلاه .. إلى الهواء الطلق .. والعريضة .. والضحك .. والبكاء ..

شهوة ملحة في أن أبسط أجنحتي التي كانت مضغوطة طوال هذه السنين .. وأخلق بها كالمطائر ..

وتدفقت أبيامي كلها .. تطالب بحقها في أن تعيش من جديد .. طفولتي .. صباي .. نياي ..

ثم عادني الجبن .. وثيقظ خوفي القديم .. وأمسك بعقالي .. وسكت على مضض .. وأنا ألوك في في آلاف الكلمات ..

ولكني أحسست أني تغيرت .. وأصبحت شخصا آخر غير حلمي القديم ..

عرفت لذة التردد .. وظل هذا الإحساس يلازمي .. وأنا أدخل إلى البورصة .. والسيجارة ما زالت في في .. وعيناي تقرأن الكلمات المكتوبة على السبورة في الدور العلوي ..

حركة الأسعار .. نوع الأوراق المالية .. أسعار الفتح .. أسعار الإقبال ..

وأذني تلتقط صيحات السهاسة حادة مختلطة .. سيجورات ٨٤٤

سيلوس .. سيلوس .. التمددين ٤٠٠ بايع .. بايع ..

المناجم ١٢٨ .. الملح .. الملح .. شاري ..

أسمت طره ٩٧٠ .. ماتكسا .. ماتكسا .. بايع ..

والأيدي تلوح .. وتنتبك ..

والأصوات الحادة ترن في أذني كأصوات القسط .. وهي تتعاري على صفيحة قامة .. وعيوبها تنع ضوءاً أخضر مخيفاً .. ناو .. ناو .. لو ..

غو .. غو ..

ورأس الخواجة مترى التاجز العجوز ووجهه الأبرص المرقط بالبياض يذكرني بوجه قطننا .. جيبي ..

وانقلبت عيناى في آية لتقرأ على لوحة أخرى .. كتراتات أقطان طويلة النيلة .. فولى جود ..

وصمت الخواجة مترى يتحدث ويلوح بيده ..

- يا حبيبي الدنيا هنا مجازفة .. الى عاوز يكسب لازم يجازف ..

يرمى نفسه .. الى يخاف هنا يموت ..

ووقفت خائفاً في ركن أطلب نصيحة الخواجة مترى قبل أن أبيع أوراق ..

وأشار على بصفقة صغيرة ..

وأسكت بقلمي لأرفع الإذن .. وأحسست برعشة التحدى تنتقل إلى بالعدوى من الجو المكهرب حولى ..

كان كل واحد يتنمر .. ويتلمظ على المكسب ..

وأخذت أنا الآخر .. أتلمظ .. وأتنمر .. وأتنمر .. وأتنع أسعار أسهمى وهي ترتفع .. وتقفز من رقم إلى رقم على التابلوه .. وأتنع الطباشيرة وهي تكتب ١١٢ - ١١٤ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ ثم تتوقف ويصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ - ١٢٣ ..

وترددت .. لامن الخوف .. ولكن من الطمع ..

لقد ارتفع السعر ١١ بنطاً في يوم واحد .. فابالى لو انتظرت يومين آخرين ..

وشعرت بطمعى يتغلب على خوفي .. وشعرت بإحساس الطفل الذى تزوج عتياء أمام دكان الحلوى ..
وعزمتى الخواجة م ترى لكى أبيع .. ولكنى لم أبيع ..
وحينما خرجت فى ذلك اليوم .. كنت أشعر بشئ جديد غامض يدخل حياتى .. كنت أحس بنضج الحماس والجسارة يتسلل إلى عروقى ..
وكنت أشعر بحياتى القديمة تسقط عنى شيئاً فنيشياً كالرداء .. وتبدو غريبة ..

زوجتى .. بيتى .. فئجان الشئ الذى أرضفقه على الفطور ..
أصوات الشارع الأليفة وهى تملو فى الصباح تحت نافذتى .. هممة أم حسن خادمتنا المعجوز على سبحتها .. ودعاؤها لى بطول العمر ..
كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كعلم غريب غير حقيق ..
لقد تغيرت ..
كان هذا الإحساس يسعدنى .. وكنت احتفل به فى قلبي ..

وحينما خرجت من السينا فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى العودة الى البيت ..
ورأيت قدمى تسعيان على غير عادتى الى ملهى ليلى ..
ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلقى بشلالها .. وتجايل .. وتناود .. وتنام على ظهرها .. وعازف الطبلية يقفز حولها كالفرس ..
ولفتت نظرى ان كرسى عازف الطبلية عليه شئك ولا أدرى لماذا خطر لى ان عنده بواسير ..
وضحكت طويلاً لهذا المخطر السكران ..
ولم أكن قد دقت قطرة غر .. ومع هذا كنت أشعر أن رأسى مشتعلة

خفيفة .. وكنت أرى سبباً للضحك فى كل شئ حولى ..
وبدت لى حركات الطبلية مثيرة للضحك .. وكان كلما مد يده خلفه ضحك ..

وحينما تزكت الملهى فى ساعة متأخرة من الليل فضلت أن أعود إلى بيتى مائتياً ..
وكنت أجد للهواء طعماً لذيذاً فى رتى .. وكنت أستنشقه فى بطء ..
ويبدأ فى جيب بنطلونى .. وفى يصفر اغنية شعبية ..

وكان كل واحد يمر بى .. يبتسم ..
وحينما فتحت باب شقتى فوجئت بزوجتى تقف أمامى شاحبة حراء العينين قلقة .. تنهت فى صوت خائف :

- أين كنت طول الليل ؟

وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحاً .. وأن هذه هى المرة الأولى التى أسهر فيها إلى هذه الساعة المتأخرة ..
ومسحت على وجهى بيدي .. وأنا أفيق .. وأعود شيئاً فنيشياً إلى نفسى القديمة ..

وتنمت بكلام لا أذكره ..

وخلمت ثيابى .. وتناولت عشاى وأنا صامت .. لم أكن سعيداً بعودة هذه النفس القديمة ..

وبدا لى فى تلك اللحظة أنى هبطت فجأة من السماء إلى الأرض ..
وعدت إلى الحياة .. كإنسان ميكانيكى يدور بزميلك ..

وتناولت زوجتى خطاباً عليه طابع دمشق .. ونظرت فى الخط .. وأنا أتساءل .. من الذى يرسل لى خطاباً من دمشق .. ووضعته فى جيبى ..

وفى الفرائس مددت يدي إلى الخطاب وفتحته لأقرأ هذه السطور ..

عزيزى حلمى ..

لعلك لا تذكرنى الآن وأنت تقرأ التوقيع .. فقد مضى على افتراقنا سنوات طويلة .. ولكنى أذكرك .. وأذكر معك أجمل أيامى .. حيناً كنا نلعب أنا وأنت وأختى صافى فى عزبة والدى ونحن صغار .. ونجسرى فى دائرة حول النورج .. كل منا يمسك بذيل الآخر .. وأذكر أيام زمالتنا فى المدرسة الابتدائية .. وأيام هروبنا معا .. حيناً كنت تخاف وتعود إلى المدرسة وأمضى أنا وأختى صافى لنقضى اليوم فى حديقة الحيوان .. واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأختى .. وفكرنا أن نلتق ثانية .. لتتعرف على ماضينا الحلو .. ونعيد أيامنا الجميلة ..

إننا نعيش الآن فى دمتسق ولنا أملاك وأراضى هنا .. ونحن ندعوك لقضاء شهر فى ضيافتنا .. ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة .. ونحن فى انتظار اليوم الذى نمجده .. وإلى أن نلتق لك حيناً وأخوتنا .

« فؤاد »

وشعرت بوجع من السرور .. وأنا أقرأ الخطاب .. وأعدت قراءته وأعصمت عيني ..

سوف أذهب الى دمشق .. وأخلع ردائى كله .. أخلع عني هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة .. وأخلع عني القاهرة كلها .. وأخلع حياتى .. وعادائى .. وكلماتى .. التى أقولها كل صباح .. وأعيش ..

وشعرت بدغدغة النشوة فى كل جسدى .. ونظرت إلى زوجتى فرأيتها تنظر إلى باستغراب .. وتسألنى عما فى الرسالة ..

ولم أجيب .. وتناومت .. فأحاطتنى بذراعيها .. ولكنى لم أنسر بالرغبة فيها ..

وأحسست بأطرافى تبرد وتتلعج تحت لمستها .. وأدبرت لها ظهرى وبدأت أتغبل صافى .. وجهها التركى الأبيض .. وصفيرتها الذهبية .. وعينها الصافيتين مثل كأسين من عسل النحل .. وذراعيها البيض مثل عود الخوص الطرى ..

وتدفقت الرغبة حامية فى عروقى .. وأحسست بلهب الجنس يحرق دماغى ..

ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أختى سرأ .. وضننت بها .. وتركتها تغلى فى دمي .. وتورقنى .. مثل سر لذيق جداً .. وظللت أحلم ..

وكانت زوجتى تتحدث .. ولم أكن أسمعها ..

كنت أنظر الى قفها وهو يفتح وينغلق .. وإلى كتفها العريضتين .. ودقت ساعة الحائط أربع دقات .. ونقل قلبى فجأة وعادونى الحسوف وأحسست أفى ضعيف .. وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرون سنة .. وأنا فى بيتى لا أبرحه ..

وداهنى شعور بالتردد .. شعور من يد رجله ليخطو خطوة واسعة فى الظلام ..

تيقظت في الصباح وقد نسيت كل شيء .. وفي اللحظة التي كنت ألبس فيها ثيابي .. كنت أدخل في عاداتي القديمة في نفس الوقت .. وكانت زوجتي تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من الثياب التي تعودت أن تمر عليها كل يوم .. حول الياقة .. وعلى الأكثاف .. وعلى الظهر والأكتاف .. وثنية السروال .. ثم تنصحن كعادتها أن آخذ بالي من الطريق وتنظر إلى نفس النظرة المنونة .. وأم حسن تجسري خلقي وفي يدها الحقيبة .. والباب يزوم كعادته دائماً كل صباح ليضكو من رطوبة مفاصله .. وحارس المصعد يرفع يديه الإيتين لتتحقق .. ويفتح فمه في بلاهة فتبدو سنته الذهبية .. نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التي أصطحب بها كل يوم.

وجلس في العربية .. وتساعدت إلى أنقى رائحة البزين .. وجمعت صوت الموتور .. ورأيت وأجهات المحلات تتحرك في الزجاج وتغتنق .. ولكن أذني ظلت تردد جملة واحدة طول الطريق .. جملة قائتها زوجتي وهي تعطيني النذيل.

لا تنس أننا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابننا ..

جملة غريبة في هذا السيل من الحياة العادية ..

ظلت ترن في أذني طول الطريق .. وأنا أحس أنها جملة ظريفة ..

وأذكر احتفال السنة الماضية .. الذي لم يحضره أحد سواي أنا وزوجتي وأبي .. وكيف كانت زوجتي غاضبة لأنها لم تدع صديقاتها وأبي غاضب لأنها تناقسته وتريد عزومة الناس .. وماذا وراء عزومة الناس إلا الحسد .. وأنا أكل من التورنة ولا أفكر في شيء .. وابننا يصرخ في الغرفة ..

ولكن الآن أفكر في أشياء كثيرة .. وانتظر هذا الاحتفال بشوق .. وكلما زوجتي ترن في أذني كما ترن بشرى العيد في أذن طفل .. وإحساسي بالترن يدفعني إلى الضغط على الكلاكس .. والعبث .. وأنا أسوق .. وأتراجع بيتاً .. ويساراً ..

اليوم نحتفل ..

أنا أشعر بانسباط ..

وتوقفت عند دكان لعب .. واشترت قرداً بزميلك يقفز ويصفيق بيديه .. واشترت ورقاً ملوناً .. وصواريخ ..

وتوقفت مرة أخرى عند محل ورد ..

ثم عدت أستأنف سيرى .. وأسلم نفسي إلى حياقي العادية .. وعلى شفتي ابتسامة ..

وفي المساء حيناً عدت إلى البيت .. دخلت غرفتي وأنا أصفر .. ثم

أغلقت الباب .. وأخرجت القرد وأدرت الزميلك .. ورحلت أنفجر عليه

وهو يقفز ويصفيق بيديه حتى توقف .. ثم أدرت الزميلك مرة أخرى ..

ورحلت أنفجر ..

ونسيت أني قد أحضرت اللعبة لطفلي .. ورحلت ألعب بها ..

ولكن زوجتي التي تسللت من الباب الموارب وجاءت تستطلع ..

ووقفت تنفجر خلقي .. ما ليشت أن هتفت في دهشة أيقظتنني :

- أنت الذي تلعب .. غير معقول ؟

وضحكت وأمنت في الضحك ..

ومع هذا .. فقد أسكت هي الأخرى بالقرء .. ثم بدأت تدير الزميلك .. وتلعب ..

ثم قالت فجأة في مرح :

- إن حفلة اليوم ستكون بطريقة .. لقد دعوت جيرانتا .. ودعوت صديقتي فاطمة ..

ورفعت رأسي عند ذكر الاسم ..

وكنت أسمع منها دائما حكايات كثيرة عن صديقتها فاطمة المحامية .. ولكني لم أكن قد رأيتها أبداً .

وكانت كثرة ذكرها أمامي .. ورواية حكاياتها .. قد جعلت لها شخصية في ذهني .

وشعرت بمرور حق ..

وعدت أملاً الزميلك .. وأنفجر على القرد .. وهو يقفز .. ويصفق بيديه ..

لأول مرة كنت أنشاهد كرسى الصالون من غير بياضات هذه الليلة .. وقاش الطقم يلعب في ضوء النجفة الكريستال ..

وكنت أتمسح قاش الطقم في لذة .. وأختلس النظر إلى الضيوف . كانوا ثلاثة .. جيارتا الأستاذ عزيز .. وزوجته نادية .. وفاطمة المحامية ..

وكنت أختلس النظر إلى فاطمة وأتبع حركاتها في اهتمام ..

وأجد من الصعب الآن أن أصف إحساسي بها لأول مرة .

كان إحساسي حيناً أسكت بيدها لأصافحها أني أسك بأصابع

خالية من العظم .. وبشرة ملساء فيها ملاسة حيوانية كأنها جسم « عرس » ..

وكان صوتها المبلل وهو يحادثني فيه لزوجة تلتصق بالأذن وبالأعصاب .

ولم تكن جميلة .. ولكن جسمها كان فيه بضاخة ..

وكان صدرها يكظ من فتحة نوبها .. وكانت أردافها تضغط على الفستان .. وكانت استدارة كتفها وهي تختفي تحت الحرير الأسود المطرز تثير الخيال والتصور .. وتغريه على تتبع هذا الانسيال .

وكان تكرر بطنها تحت الفستان يوحي بأن لحمها ليس فيه ثنية واحدة وأنه مشدود متوتر .. فائر ..

وكانت عينها فيها بريق .. يومض .. وينطفئ .. حيناً ينعكس عليها الضوء .. وهي تتلفت ..

وكانت في شخصيتها جرأة واقتحام .. وكانت في كلماتها مبادرة غير عادية في النساء .

كانت على عكس زوجتي تماماً ..

وكانت زوجتي سعيدة بها جداً .. فخورة بشخصيتها وجراتها .

وكانت تقول وهي مبهورة :

- هذه هي رائدتي .. هذه هي القائدة التي كانت تترعنا في المظاهرات وفي الإضرابات .. وكانت خطيبة المدرسة الرسمية .. وكانت رئيسة الإخوات المسلمات .. ورئيسة فرقة التمثيل .. ورئيسة كل حاجة ..

- فعلاً .. إن محال الزعامة تبدو عليها .

كنت أقول هذا وأنظر إليها .. فتبادلتني بنظرة ثابتة وعينين فاحصتين لا تطرفان حتى أنكس بصرى .. فلاحقني بكلماتها وصوتها المبلل ..

وتبادرنى قائلة فى تحد :

- ما لكم دائماً تصابون بالدوار حينما تسمعون عن امرأة .. تقود
وتأمر ..

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرى فى عينيها :

- لأن المرأة تقود وتأمر فعلاً بدون حاجة إلى مظاهرات وإضرابات
وغضب .. لأننا نجها ونسلمها ذوقنا .. فيصبح الرأى رأياً والكلمة
كلمتها .

- أنا أرفض هذه القيادة التى أفوز بها بمجرد تنازلكم .. إنه غرور
منكم أن توقفوا حياتنا على حيككم .. أنا أيضاً لى غرورى .. أنا أريد
أن أغتصب حق يدي .. وأخذة رضا عنك .

- أسمع الكلام .

وتصفق زوجتى فى سرور وإعجاب .

- أسمع الكلام .. هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تريك
مقامكم ..

- أنها لن تربنا مقامنا .. وإنا هى سوف نسعى إلى حتفها بيدها ..
سوف تتحول إلى رجل .. وسوف نرحب نحن بأن تصبح نساء . نجلس
فى البيت ونأخذ نفقة ومؤخراً ومقدماً وشبكة وبذلات أنيقة وكرافات
سولكا لأعياد ميلادنا .. إنها ورطة يسرنا أن تقعن فيها . أنا لا أمانع
شخصياً فى أن أنام فى البيت وأننازل لكن عن التسقاء وعرق الجبين ..
- أنظن أنه يمكن أن أقصول إلى رجل .. إلى أعمل منذ خمس
سنوات .. أنظن أنى أصبحت رجلاً .. أنظر جيداً ..

وترمقنى برمش عينيها فى دلال . ويقهقه الأستاذ عزيز :

- إنك لا تقظين يا صاحبي .. اسمع نصيحتي .. إن الطريق الوحيد
لتغلب المرأة هى أن تجعلها تحبك .. وحينما تحبك سوف تقتنع بكلامك ..

وتكف عن مناقشتك ..

- لماذا تصرون على تصويرنا هكذا فى صورة مخلوقات عقسوها فى
عواطفها .. مخلوقات لا تفهم ولا تفعل .. ولا تحركها إلا نزواتها . أنتم
واهمون .. نحن الذين ضحكنا عليكم .. وروّجنا هذا الوهم .. وأدخلنا
فى ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة .. وأنكم نسطار وأقوياء ..
ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لتأكل عقلكم وتأخذ ما نريده ..
تماماً كما تفعل مع أطفالنا ..

وتصفق أمينة وتقف وتجلس فى سرور .

- أسمعون !! لقد ضحكنا عليكم كما تضحك على أطفالنا .

ويقهقه الأستاذ عزيز ويسبح على رأسه الأصلع .

- أتئن يا نساء لا تجدن إلا الثروة .. إن الله لم يقطع ضلعاً من آدم

ويصنع منه حواء .. ولكنه فى الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة .

- وخصوصاً حينما تكون المرأة محامية مثل فاطمة .. إنها لا يد أن

تكون مخلوقة من لسان ضاى أصل .

- أنا شخصياً أعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم .. وما

زالت المرأة إلى الآن تصنع الرجال بأصبعها .. أنها تنسج فى أى مكان

إلى الرجل فينتعها وما يلبث أن يصبح زوجها .. وأنا فى الحكمة أنسج

بأصبعى وأنا أترافع .. وأنفذ أعناقكم يا رجال من المشائق .. وهكذا

بأصبعى فقط .

وتهلل وجه أمينة فى سذاجة .. وهى تحتضن صديقتها ..

- أسمعون .. بأصابعنا .. فقط ..

ويقهقه الأستاذ عزيز .

- لا فائدة من مناقشة امرأة .. إنك تلف وتدور .. ثم تسلم لها بكل

ما تريده .. لأن دماغها خفيف .. ولأن لذة إرضائها تفوق لذة الحقيقة ..

أنا شخصياً أرفع الراية البيضاء .. وأسلم .

- برافو يا فاطمة كسبتا القضية .

وتضحك فاطمة وتهتف .

- أشكرك .. والآن .. أين مؤخر الاعتاب .

- لقد أعددت لك عشاء شهياً ..

- راتع .. يا أختي ..

وعلى العشاء كان في إمكانى أن أراقب الأستاذ عزيز عن كتب ..
وأأمله .. وهو يتكلم .. ويأكل .. ويلوح بيديه ..

والأستاذ عزيز قصير القامة . في الأربعين . رأسه صلعاء في
منتصفها . ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين .

وهو حيناً يتكلم بلحن شغيفه بلسانه من لحظة لأخرى ثم يزمفه ..
فتبدو شفاته رفيعتين جداً .. وفه مرسوماً في صرامة وقسوة .

وهو يتكلم بحدة .. ثم يتفجر في الضحك من تلقاء نفسه .. ويقهقه
بحدة أيضاً .

وطول الوقت كان عزيز لا يرفع بصره عن فاطمة . وكان يحيل إلى
أحياناً أنه يأكل منها هي .. ولا يأكل من الطبق .. لأن الطبق كان

يقسرغ ولا يفسطن إليه .. ويظل يحمل أمامه حيث تجلس فاطمة إلى
جوارى . وينهدها التافران ينصبان من صدرها في تكرر شهى

وجراج .. وكنت أحس وهي إلى جوارى تجلس ذراعها .. وبذلك
التسور الأملس الحيواني الذي يتسرب الى من جسمها الطرى الذي

ينبه جسم « العرس » .. فأشعر بالخدر وأترك كنى لا صفاً يكتفيا ثم
أعود فأنتقط وأنقر بعيداً .. وأنظر الى عزيز .. وهو يلحن شفته ..

ويزمفه .. ذيموه كالقطة وهو يأكل ..

وكان الكلام يدور على المائدة عن الهامة .. والمفارقات التي تلتاقها
الهامة أثناء العمل ..

وكانت زوجتي تتكلم عن قضية الوقف التي رفعناها من سنين .. ولم
نصل فيها إلى نتيجة . وتقرح على أن نسلم القضية إلى فاطمة ..

لتعالجها بعفويتها .. وفاطمة تبتدى استعداها .. ثم تنظر إلى ناحيتي
وتهمس :

- أخذ فيها ألف جنيه ..

- أنا مستعد .. إكسبها أولاً وأنا أعطيك ألف جنيه .

- إتفقنا .. مر على غدا في المكتب . لنبدأ في الإجراءات ..

ولا أدري لماذا أحسست بالخجل فجأة .. كأني طفل يأخذ ميعاداً
غرامياً .. وضائقي إحساسى .. ونظرت إليها في رهبة من جانب عيني .

وضبطني وأنا أنظر إليها خلسة .. وابتسمت .. ثم ضحكت ..
وأشرق وجهها بسعادة آفة .. وغرور .. ضائقي أكثر وأكثر .

وشعرت بالغيظ وبيل إلى السخرية منها .. فقلت وأنا أضغط على
كلأتي .. كلمة .. كلمة ..

- أن كل أمنيى الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاء نساء ..
وأشاهد فشل كل الهاميات بعيني .

وضحكت فاطمة وهرش عزيز رأسه .. بينما أردفت أنا في هدوء :
- إننا نحن الرجال الذين تكسب لكن القضايا .. أنتن تصعن علينا

ولو كنتن قاضياً ووقفت أمامي تكيين حظ التهم حتى يح صوتك . فإني
كنت أعطيك البراءة بمجرد التشفقة .. فأنتم مها أخذتن التسهادات

والدبلوماسيات وارتفع صوتكن بالجمعية .. ستات .. ولايا ..
فأجابت فاطمة في بساطة :

- حينما يصبح الهامى امرأة والقاضى امرأة فسيكون المتهم رجلاً ولن تهتما القسوة حينذاك لأنها ستقع على دماغكم ..

- حينذاك سوف نترك لكن الدنيا .. ونذهب لتعيش فى القمر أو فى أى كوكب آخر .

- حقاً ؟! .. أستطيعون ..

وكانت تنظر الى وكأنها تقول لى من طرف خفى .. إنك لا تستطيع حتى أن تترك الكرسي بجانبى ..

كنت أودخن بشرافة بعد العشاء .. وأنظر فى الزكن حيث توجد زهرية كبيرة قديمة .. والضيوف من خلق يثرون ويضحكون .. وفاطمة تحتضن ابنى وتقبله .. وصوت البيانو يعلو من أقصى الغرفة .. فأظن أنه الراديو .. لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث يطفئها التراب من سنين .. ولا يضرب عليه أحد .. ولكننى فوجئت بدم عزير جالسة على كرسى البيانو تعزف ..

ودعشت لأنى طول السهرة لم أفطن الى مدام عزير .. لم أحس بها .. كانت موجودة معنا طول الوقت .. لكن بدون صوت .. لم تتكلم كلمة واحدة ..

وتذكرت أنها كانت تجلس عن يسارى على المائدة طول الوقت .. ولم أنظر إليها ..

وكان زوجها عزير يقف على مقربة .. ينفث الدخان من سيجار ضخمة .. وقال لى عندما رأى .. أن زوجته نادبة عازقة بيانو ممتازة .

وسمعت زوجتى تهتف :

برافو ياناقى .. هذا عزف رائع ..

ورفعت نادبة رأسها الصغيرة .. ونظرت اليها ..

كان وجهها رقيقاً صغيراً فيه طفولة .. وعيناها السوداوان فيها قلق وشروء .

وكان يجيل إلى أنها لا نرانا .. وأنها تنظر من خللنا ..

وعادت إلى العزف .. وأخفت رأسها الصغيرة خلف البيانو ..

أين سمعت هذه المقطوعة ؟؟ ..

واقتربت من البيانو ..

وكنت أرى شعرها المتهدل .. وكنتفها المتحدرين وجسمها الضئيل ..

وبدها الصغيرة وهى تنتقل بسرعة على مفاتيح البيانو ..

وانتهت من العزف .. ورفعت رأسها ببطء .. ودارت ببصرها فينا ..

ومرة أخرى شاهدت عينيها السوداوين وذلك التلق المبهم ..

والشروء .. والضياح .. الكامن فيها .

كانت تنظر إلينا كأننا غير موجودين .. وتكلم فى هس .. كأنها

تكلم نفسها .. وتبتسم ابتسامة فيها وجل وتردد .

وقال عزير :

- ان زوجتى تقرأ كثيراً .. إنها دودة كتب ..

واخفى صوته فى ضوضاء البيت .. ورتين ضحكات طفل وهو

يجرى .. وفاطمة تجرى خلفه ..

ومرت لحظة صمت .. وسعل عزير سعلة حادة .. ثم عاد بمحاول

اشعال سيجاره الذى انطفأ .

فى تلك الليلة حينما أغمضت عيني لأنام .. حاولت أن أتذكر الوجوه

التي شاهدها في الحفلة .. وجهاً .. وجهاً .. ولكنى لم أستطع أن أجمع
أشتاتنا من ذهني ..

كانت صورة فاطمة تلح على خيالي وتتسلل إلى أعصابي ومعها
تمثيل يحذرنى كلى ..

صوتها اللبلل .. وملعها الناعم الجبواني .. وصدرها النافر
الرجراج .. والبريق المشع في عينيها .. وتخصيبها الوقحة .. وكلامها
الملي بالاستغزاز ..

وأكتشف أنى تسيت تماماً أصدقاء دمشق .. ومشروع دمشق ..
وانزلت من ذهني كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط .. هو
فاطمة .. اشتها .. وتفور .. وغيط .. وخوف .. ورغبة في فاطمة ..
رغبة في إيذائها ..

كنت أنجيل أنى أمزق فستانها حتى تصرخ .. وتقول: ارحمنى ..
ولكنها لم تكن تقول .. ارحمنى .. وإنما كانت تضم أطراف جسدها
العريان .. وتنظر الى نظرة من هذه النظرات التي تبرىق ..
وكنت لحظتها أيقن من خيالاتي .. وأتذكر الميعاد الذي بيننا فيحقق
قلبي بشدة ..

وتوترت أعصابي فلم أستطع النوم .. وظللت أحلق في الظلام ..
وأقلب في فراشي .. وأقلل .. وأنفخ .. ثم أحاول أن أطرد كل شيء
من ذهني لأنام ..

وتضخمت أصوات الليل الخافتة .. فأصبحت جليلة واضحة في
سمعي .. وبدأت أتبع صوت قطرات الماء وهي تدق على الحوض ..
وتككة الساعة .. وطين موتور التلاجة ..

وتيقظت زوجتي وسألتني إن كان هناك شيء يؤرقني .. فقلت:
لا شيء .. القهوة كانت شديدة وهي التي نبتت أعصابي ..

وسمعتها تروح في النوم من جديد .. وسمعت تنفسيها يزداد انتظاماً
وعمقاً كلما أوغلت في النوم .. ثم أحسست بذراعها يحوطني وينام وادعاً
على صدرى .. وسمعت فيها ينتم كلاماً لم أتبينه .. لا شك أنها كانت
تعلم حلماً رقيقاً حنوناً ..

وسألت نفسي في تلك اللحظة .. ماذا أريد ..

ماذا أريد بنفسى ..

ها أنا ذا الآن زوج يتمتع بزوجة تحبه وطفل بعشقه .. وصحة
وشباب ومال وجاه .. وها أنا ذا أقلب على فراشي مورقاً كنتخض
مريض تسعه الحمى ..

ماذا أريد .. ماذا أريد !!

وكان السؤال صعباً .. أصعب من الأرق ..

وشعرت بالصداع ..

ونقلت رأسي جداً .. ورحمت في النوم .. نوم قلق تشوشه الأحلام
وكلها أحلام من نوع واحد .. يحلم عليها الخوف ..

فأنا في مرة أركب تراماً فيخرج عن الخط .. وفي مرة أخرى أركب
سفينة فتشرف على الغرق .. وفي مرة ثالثة أدخل الحمام فيسرق الخادم
هدومي .. وفي مرة رابعة أذهب الى المكتب فأكتشف انى نسيت
الحذاء .. وأنى سرت طول الطريق خافياً .. ينظر الناس في وجهي
باستغراب ..

وأنا دائماً أقع من آخر دور .. ولا أصل إلى الأرض أبداً .. وإنما
أظل أهوى من حائلي في دعر أوشك على الاصطدام والتناثر كل ذراع
في ناحية .. ولا أجد شيئاً أسك به .. ولا أحد أنادى عليه ..

وحدى .. وحدى .. في الهواء .. بلا أرض .. أقف عليها ..

لم يكن نومي نوماً .. كان عذاباً ..

كنت أعاني ..

وحينا فتحت عيني على ضوء النهار .. وسعرت بدفء البيت حولي ..
وسمعت ضوضاء الناس في الشارع .. شعرت كأني خرجت من جب
مظلم تحت الأرض .. وأحسست بالراحة ..

ولكني بعد ذلك بساعة حيناً ووقت أمام المرأة أنطلق الى طسولي
وعرضي وأناقي .. لم استطع ان اتس ذلك الاحساس الذي ظل يأكلني
طول الليل .. بأنى صغير .. وحيد ضائع في الدنيا .

كل هذا الطول والعرض لم يسترقى وأنا نائم وظللت أنفض من
الخوف كطفل تركته أمه وحيداً في الظلام .

وحينا كنت أسير في المساء الى مكتب فاطمة المحامية أحمل تحت إبطي
ملفات القضية التي اتفقنا عليها .. عاودني مرة أخرى ذلك الشعور .
وأحسست أني أضرب الأرض بقدمي بشدة .. وأرفع رأسي في
صرامة .. وأقطب جبیني .. لأبعد هذا الإحساس بالضعف .

وحينا دخلت مكتبها .. وقابلتني ضاحكة .. شعرت فجأة
بالارتباك ..

وسارعت إلى الملفات .. أفتحها .. وبدأت أشرح لها القضية التي
حفظت كل تفاصيلها .. وذاكرتها في البيت جيداً .

وظلت تصغي ويدها على خدنها .. وعيناها مسطنتان كالمصباحين
الكتنايين على وجهي طول الوقت ..

وبعد فترة قضيتها في القراءة رفعت رأسي ونظرت إليها سائلاً :

- هيه ... هل فهمت الآن المشكلة كلها ..

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وأغرقت في الضحك .

- لماذا تضحكين ؟

- لأنك جد جداً .. ولو قدر لك أن ترى نفسك لضحكت أكثر

منى .. إنك تدخل متجها وفي يدك الملفات وكأنك النائب العام ثم
تخطئ الملفات على المكتب .. وتفتحها وتغلق في القراءة بصوت عالٍ ..
ثم تسألني فجأة كأني تلميذة .. وتقول .. هيه .. هل فهمت .. أراهن
أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته .. لقد أضحككني يا شيخ ..

وتراحت أصصاي دفعة واحدة .. وابتنمت رغماً عني .. ووجدت
نفسى أنظر لها في استسلام .. وقد أبقت أنى الغتضت .

وأخذت أتلهى بالنظر إلى الغرفة حولي .. إلى القماش الأزرق الذي
يغلف الكرسي والأباجورة التي تتدلى على قنار امرأة عارية .. وإلى
عيني فاطمة اللتين يعربد فيهما الكلام ..

وكان واضحاً أننا نحن الإنسان لا نهم كثيراً بأمر القضية .. وأنا
كلانا نبحث عن مواضيع أخرى نتكلم فيها .

وقلت وأنا أنير إلى الأباجورة :

- أنت أيضاً تزينين غرفتك بتمثال امرأة عارية .. كنت أظن أن هذا
الضعف قينا فقط نحن الرجال .

- لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده .. إن الذنب ذنب
التحائين الذين لا يحتنون إلا النساء ..

وصبت لى الشاي في الفنجان أمامي .. وبدأت أنسرب وقد عدت إلى
نفسى قليلاً .. وزال عني الحرج . فلم أعد بحاجة إلى الكذب .

والكلام .. في القضية ..

قضية إيه ؟

وقلت وأنا أنثفت حولي :

- مكينك جميل .. لا يبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين .. إنه
صالون ..

- انى أحب ان أستمتع بحياتي وعمل .. إنى أحيط نفسى هنا بكل

الأشياء التي أحبها .. وأنت تجد حول كل شيء .. حتى الراديو .
وأخرجت راديو صغيراً في حجم علبة السجائر .. وأدأته فخرجت
منه الموسيقى .

- يا ترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك ؟

- أجل بكثير .

- إن زوجك رجل سعيد .

وضحك ضحكة جافة .

- زوجي .. لقد طلقت زوجي من زمان .. إن الحرية أجل شيء في

الدنيا .. هل جريت حياة العزوبة ؟

- لا .

- أنت مسكين .. لقد ضاع نصف عمرك .. إن أجل شيء في الحياة

أن تعيش لا تعرف ماذا يحدث لك غداً .

- ألا تخافين من كلام الناس .. وأنت تعيشين هكذا .. زوجة مطلقة

في بيت طويل عريض وحدك حرة كما تقولين ؟

- ومن هم الناس الذين أعمل حسائهم .. كل الناس كذابين ..

ثرناروت منافقون تافهون .. أنا أعطى لهم المثل .. وهم يمشون خلقى ..

ويقلدون .. إن كل جارية من جارائق تنمي أن يكون لها مكتب مثل

مكتبي وعمل ناجح وزوج تطلقه وتعيش حرة مني .. ولكنها تقول كلاماً

آخر حينئذ تسأله .. لسانها يقطر كذباً وحسداً .. أتريدني أن أحسب

حساباً لمثل هذه المرأة .. إني أعيش حياة واحدة .. فكيف أتأزل عنها

لامرأة ثرارة كذابة . ولماذا .. مجرد أن ترضى عني .. وماذا .. يساوي

هذا الرضى الكاذب .

وقاطعتها فجأة لأقول في نبرات حادة :

قولي لي .. لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك ..

وشعرت أنها تضايقت .. ولكنها أجابت في برود :

- لأنه رجل مففل .. مثل كل الرجال المغفلين .. يريدني أن أكون

جارية يملكها لا زوجة يشاركها حياته .. يريد أن يجرى ويلهو على كبشه

ثم يعمد إلى البيت ليجدني راكعة عند قدميه .. أقول له يا حبيبي ..

يا ميمودي .. وكأني أرضى وقف مكتوبة باسمه .. يتركها خرابة مائة سنة

ثم يعود فيجدها ما زالت خرابة ..

وقلت لها يهدوء :

- هل كنت زوجة مخلصه ؟

فأجابت وهي تضحك ضحكة مقنطبة :

- إن الإخلاص تعقل لا داعي له .. إنه أحياناً يلازم المرضى

والمقعدين .. وأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وقتاً ليعتنوا

ويستمتعوا ..

ثم انتفضت فجأة لتقول بشيظ :

- ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مخلصه ؟ .. لماذا لا تطالبون

الرجل بالإخلاص .. لماذا تنفرون له عندما يخطئ ولا تنفرون للمرأة ؟

- لأن المرأة تحمل ثمة خطيئتها .. لأن خيانة المرأة معناها طفل

غريب في العائلة ..

- وخيانة الرجل معناها أيضاً طفل غريب في عائلة أخرى ..

- عائلة أخرى بعيدة عنا ..

- يا سلام .. ألا تحس بأنك تستحق التسق وأنت تقول هذا الكلام

الفارغ ؟

وعادت إلى الضحك وأردفت في دلع :

- وإذا كانت الأطفال هي كل المشكلة .. فيمكن أن تلجأ إلى موانع

الحمل ..

- هذا هو الانحلال بعينه .. تصورى زوجة تحمل فى حقبة يدها
موانع الحمل كما تحمل أصابع الريح وزجاجات البارفان .. هل يمكن
لخل هذه الزوجة أن تهتم بعمل أو بيت ..
- ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال .. ألا تعملون أمثال
هذه الأنثى فى جيوبكم أحياناً .. ألا تحمل أنت الآن فى جييك أحد
هذه ال ..
دعى أفتنك ..

وهجمت على فجأة لتفتشنى .. وأجعتنى المفاجأة .. فتركها تعبت فى
جيوبى وتخرج المتداول .. والمحفظة .. وتفتشنى جيئاً جيئاً بدقة ..
وأخيراً سمعتها تقول فى رقة ولفظ:
- يا لك من طفل ودع صغير .. إنك لا تحمل سوى قطعة
شكولاتة .. يا لك من ملاك ..

وداعبت خدى بأصبعها .. واحمر خداى من الحجل والإحراج
وشعرت بالغليظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل .. وقلت بحفاة:
- لا تظنى أنى ملاك إلى هذه الدرجة .. إنى فى الحقيقة شيطان على
طريقى أحياناً ..
ونظرت إلى بحيث:

- أحقاً .. أنا لا أصدق .. ان الشياطين لا يقولون عن أنفسهم
شياطين ..

وأردفت فى دلح:
- وما دمت تأكل البونبون والشيكولاتة يا شيطانى .. فاذا تشرب هل
تشرب تليو ..

ومالت على الجرس خلفها لتدقه .
- سوف أطلب لك تليو ..
- واشتد غيظى من سخريتها .. ولا حظت هى أى مغناط .. فسكت

وقالت بركة:

- هل ألتك .. لماذا يؤلکم يا رجال أن تقول عنكم أنكم تقط
صغيرة ودیة ويسرکم أن تقول عنكم أنكم وحوش .. أنتم أغبياء .. أنا
فى الحقيقة لا أحب إلا القطط الصغيرة الودیة ..
- هذا شذوذ جنسى ..

وضحكت ضحكة خلیة ..
- لیکن شذوذاً .. ماذا یمنى .. إنى امرأة نباتیة معدق رقیقة ..
لا أحب لحم الحيوانات .. وإنما أحب الخضروات الناعمة الغضة مثلك .
قللت بقضب:
- أنا لست ناعماً ولا رقیقاً ..

- حسناً أنت خشن غلیظ .. أبرضیک هذا .. أرجوڪ لا تحاول أن
تكون حیواناً .. إن زوجى كان حیواناً .. كان طویلاً وعریضاً ..
وغلیظاً كالنور .. وكان یصور وهو یتکلم .. وكان یسز الأرض وهو
یمنى .. ومع هذا لم أکن احتمله .. كنت أشمئز منه .. إنى لا أطیق هذا
الصف من الرجال الذى یختال بمضلاته وشعر صدره .. انه یقرزنى ..
إنى أحلم برجل من نوع أشعر رجل رقیق المشاعر ساهم النظرات
مثلك .. أرجوڪ لا تحاول أن تلبس أمامى قروة الأسد .. إنك تنقذ
كل سحرک وتصیح شئياً مضحکاً .

والحقیقة أنها أعاطنى لدرجة أنى بدأت أضحک بعصیة . ثم بدأت
هى الأخرى تضحک .. وأخذنا تضحک نحن الاثنين فى مرح ..
وماذا یم إن كنت أسداً .. أو قطة .. ما دمت ..

وتلاقت أبدينا على المكتب ونحن نضحك وتساكت أصابعنا
بعصية .. وتثبت كل منا بالآخر . كأنه غريق يمسك بطوق النجاة .
وغفت ضحكاتنا شيئاً فشيئاً .. ولكن أباينا ظلت متأسكة .. ونظر
كل منا للآخر نظرة مليئة بالود .

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل .. وأنا سهران .. أنظر بعينين مفتوحتين الى النافذة التي تشبه بروازا أسود حول سماء مرقشة بالنجوم ..

وكان الهواء راكداً لزجاً .. والجو حاراً .. وقد تخففت من ثيابي حتى أصبحت أليس جلياً رقيقاً على اللحم .. ومع هذا لم أكن أنسر برغبة في النوم ..

ودق التليفون إلى جوارى وسمعت صوت فاطمة تقول في إعياء ونبرات ممطوطة :

- ألو .. أنت .. ماذا تفعل ؟

- لا شيء .. صاحبة إلى الآن .. ؟ .. ما الذي يبيك حتى هذه الساعة ؟

- متعبة .. مريضة .. جسمي كله مهدود .. إلى أحادئك من قرائي ويطني تؤلني آلاماً حادة .. وقد خرج الطبيب منذ لحظة بعد أن أعطاني حقنة ..

- سلامتك ..

- حلمي .. أنا خائفة ..

- خائفة .. من ماذا ..

- أخشى أن أموت هكذا وحدي أو أنام فلا أصحو من نومي أبداً ..
- ما هذا التخريف ..

- البيت حولى يشبه مقبرة في هذه الساعة من الليل ..

- أليس معك أحد في البيت ..

- معي الطاعية المجوز وقد سافرت البلد ..

- أمنت الآن بأنك لا تستطيعين أن تغلني بيتا وحدك حتى ولو كانت معك شهادة حقوق ..

- أنت مجرم .. أهذا وقت الشبهة .. أى بطني .. إن النوبة ستعاودني .. إلى خائفة .. أرجوك ..

- ألم تسترعى على الحقنة ؟

- بطني .. بطني ..

- سوف أحضر حالا ..

ولبست ثيابي بسرعة وهرولت خارجاً ..

وفي الطريق كان قلبي يديق بعنف في ضلوعي .. وكنت أسأل نفسي ما معنى كل هذا .. هل أحب فاطمة .. هل أحبها حقاً .. وهل هذا هو الحب الذي يقولون عنه ..

لا أنكر أني أشعر بسعادة في الجلوس الى جوارها .. وأنتظر مواعيدها بلهفة .. وأرتب في ذهني كلاماً كثيراً لأقوله ثم أنساه .. وأشعر بخدر في جسمي وأنا ألس يديها .. وأصحو على شوق .. وأنام على شوق .. وأعيش بانتظار شيء ما كل يوم ..

إن العقل يتعب .. ما قائمة التفكير في كل هذا ..

وكنت أدخن آخر سيجارة في العلبة .. وأقنع نفسي بأنه لا داعي

للتفكير في شيء وأدق الجرس ..

وفتح لي تورجي ..

ودخلت فوجدت الطبيب إلى جوارها .. يحقنها بحقنة ثانية .

ورفعت إلى وجهها وبرقت عيناها .. وكان الطبيب يؤكد لها أنه لم يجد شيئاً في الفحص .. وأن المص سببه احتقان بسيط في المبيض .. وهي مسألة غير مهمة بالمرة . ويمكن أن تنشأ من البرد أو من الإفراط في الشراب .. وكانت رائحة الشراب تفوح منها فعلاً .
وخرج الطبيب وبقيت إلى جانبها .. وكان وجهها .. سعيداً ..
وكانت أساريرها مسترخية في راحة .. وقد زال الألم تماماً وحلت محله شقارة تبدو في عينيها .. وركنى قها .. وها يرتشان في خبث ..
وأمسكت يدي .

- يدك دافئة أدفاً من يدي .. هذا يدل على أن قلبك بارد .

- ويدل أيضاً على أن عقلك فاضٍ .

- سوف أقطع لسانك الطويل هذا .. سوف أقصه بهذا المقص يا طفلي الصغير .
وغمرت في بعينها ..

- أما زلت تحمل شيكولاتة وبنون في جيبك .. أين كنت تنسبطن اليوم ..

- لا شيء يؤذيك غير المرض . لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة ومذعورة مثل الفار .. ما كان يجب على الطبيب أن يعطيك هذه الحقنة .
- اسكت انها حقنة لذينة جداً .. لقد قال الطبيب انها هي الحقنة التي يأخذها المساطيل .. وأنا الآن مسطولة .. وبسبوسة .. والدنيا أمامي مثل حضن كبير حلو ..

- إنها ليست الدنيا التي تزغل عينيك .. إنها الرجل الذي يقف بجوارك .

- ها .. ها .. ها .. أنت مغرور .. أنا لا أحب الرجال .

- ماذا تحبين إذن .

- أحب البنين والشيكولاتة .. ها .. ها ..

- إذا كانت حقنة مخدر واحدة تجعلك تتكلمين هكذا .. فإنك سوف تصبحين مدمنة خطيرة .

- أنا مدمنة خطيرة لكل شيء .. أنا مدمنة لحظات سعيدة .. مدمنة دنيا .. اسمع .. إن الدنيا مثل الأفيون تماماً .. طعامها يصيب الجسد بالحدرد والهمود .. وروائعها الطفرة تدوخ .. وخمسها تسطل .. ونسيمها يدغدغ الخدود .. وعبتها يسكر .. وغرورها يسكر .. وكل شيء فيها يسكر .. الدنيا مخدرات .

- أنت أخطر ما فيها من مخدرات .

- اسمع .. إلى أحياناً أكون تنسوانة لدرجة أنني أُنسهي أن أجرى عريانة في الشارع .. لا .. لست عريانة تماماً .. وإنما بالمايوه .. وأغرغ على الحشيش .. كنت أقول هذا لزوجي .. وكان زوجي يقول عني امرأة سافلة .. ويعطيني محاضرة في الأخلاق والآداب العامة ..
أنتم يا رجال مغلون كلكم مغلون .. كل شيء عندكم عيب وحرام ومحل بالعرض والشر .. الحياة كلها في نظركم شرف رجل .. أية جريمة عندكم تغتفر .. إلا أن يتلوث عرض أحدكم وتنسهي أخته عين أو تلمسها يد .. عمركم يضع في هذه الحرافة .. مغلون .. أنتم تضعوننا في أضرحة وتعيدوننا وتتركون بنا .. ونحن بشر مثلكم تماماً .. نتحرق على لسة ونظرة وقيلة .. ونكلفكم ملايين الجنيئات سنوياً عن روج وبودة ومانيكير ونحو النوارع إلى معارض إغراء تحت سمعكم وبصركم .. وأنتم تتأججون بالغيرة لأنكم حتى لا تفهموننا .. اننا ليس لدينا فكرة إطلاقاً عن حكاية العرض المقدس هذه .. ولا نفكر إطلاقاً في أن نحصى شفافنا من القيلات ونحصى أجسادنا من النظرات .. نحن

تفعل هذا لتضحك عليكم .. ثم تعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كما
تحب وننتهى .. يا دلایل .. يا بلهه .
- أنت أسفل امرأة عرفتها .. ولولا أنك تقولين هذا الكلام وأنت
سكرة ومسطولة لضررتك ..
- يا طفل الصغير .. أتى لم أكن فى وعى أبدا .. كما أنا الآن ..
- أنت تحرقين .. ولو كنت زوجتى لثمنتك ..
- لو كنت زوجتك .. لما علمت شيئا عني .. لأنك أبلة .. ولأنفقت
عمرى فى عبادتك .. وإغلاق النوافذ والأبواب حتى لا تطولنى الشمس
ولضيمت حياتك وعقلك فى الغيرة .. على مدامتك المحصنة .. فاطمة
ونظمت الكلمات الأخيرة فى خلعة وتبذل .. فقلت لها فى غيظ ..
- أنت أحط زوجة فى الدنيا .. هل هذا هو التقدم المنشود الذى
حلما به فى المرأة المتعلمة .
- لا بد أن تفعل شيئا لتفيقوا .. إن الحياة أوسع وأجمل من هذه
النظرة التناسلية التى تعيشون فيها ، والنظافة التى يحملون بها . وأنتم
أقنر خنازير .
واستبد فى الغيظ فى تلك اللحظة ونسيت أنها مريضة وأخذت أهزها
بعنف .
- أنت الخنزيرة .. أنت أكبر خنزيرة .
وأفلتت منى وأطلقت ضحكة هستيرية مبهلجة . وكان واضحا أنها
سعيدة جداً ببياعى وغضبي . ولكنى أسكتت نفسى وعدت إلى هدوئى .
- أنتم أطفال : أتوكلكم الحقائق إلى هذا الحد . لا فائدة من
إصلاحكم .. حسنا يا نيطانى الصغير . لا تغضب .. نحن نساء
طاهرات محصنات عفيفات لا نرغب ولا ننتهى ولا تعجب ولا نحسب
ولا نحس . نحن لافافة عرض موضوعة فى صرة . نحن شرقكم المصرون .

وضحكت فجأة فى خلعة وقالت بصوت مخدر .
- نحن شرقكم .. ها .. ها .. أليس هذا مضحكا .. حرصكم على
أن تكون نحن شرقكم .. إن شرقكم أعالكم يا مغفلون . وليس نساؤكم
أليس عجبا إنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة البسيطة .. أه لقد
تعبت .. تعب . رأسى بدأت تنقل .. حلمى .. إن دماغى نقلت
جدا .. لا تتركى أنى أخاف أن أنام فلا أصحو .. أه الغرقة تدور ..
ضع يدك على رأسى أليست دافئة ..
وأخذت يدى ووضعها على جبينها .. وتراخت أجفانها وبعد دقائق
كانت تروح فى النوم .. وأنا إلى جوارها .. وصدرها يعلو ويهبط .
وأناها تخرج مطرة دافئة .
وكانت يدها ما زالت تثبت يدي .. وكانت تتقافز إحساسات
كثيرة متضاربة .. ولكن منظرها وهى تنام فى وداعة وقلة حيلة سلبنى
نورى وغضبي .. فأخذت أنظر إليها فى حيرة وعجب .. أين ذهب
البركان الذى كان منذ لحظات يقذف بالمعم .. أين نامت النار التى
كانت تتأجج فى هذا الصدر ..
وكانت تمسك يدي فى لطف ورقة .. وأحسست بالحنان رغبا عني .
ونزلت يدي على خدها وعنفها ولمست صدرها ثم سحبت يدي بسرعة
ونقشت فى يدي قشعريرة .
وتذكرت ليلة دخلت بزوجتى .. وكيف كنت أحاول أن أحل عقدة
لساقى وعقدة غرائزى بأن أشرب الويسكى .. وتذكرت الآن .. وأنا
أحاول أن ألجم غريزى ..
كانت هذه هى النهوات الحقيقية .. أحسها لأول مرة .. كاملة .
عارمة ..

ولا أدري كم من الساعات ظللت أصارع نفسى وأنا جالس فى

الكرسي أذخن .

ولكني أفقت من هذا الصراع على صوتها في الفجر بهمس إلى
جوارى وعينها وما تبتحان عنى .. وذراعها وما تضامى وتعذباني إلى
جوارها في ضعف .

وسمعتها تهمس وهي تحتضني :

- إنك رجل غريب .. إن جسمك بارد مثل الصدقة .
وجذبتني من عنق .. في دلح .. وغمرتنى بالقبلات .

كل ما أذكره وأنا عائد إلى بيتي هي كلماتها الأخيرة وهي تودعني
قائلة : « انت خنزير قذر .. وستقول لزوجتك ذلك . أم أنك ستكذب »
ومنظر وجهها وهي تقبلي في مزيج غريب من السخريه والحب هامسة :
- أما زال في نيتك ان تشق زوجتك إذا ضبطتها في أحضان رجل
آخر .. أم إنك فقدت الشجاعة .. وفقدت الشرف أيضاً .
ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت في ذلك اليوم .. ولكنني تغيرت
كثيراً .. ولعل فقدت خوفاً .

ولعل شيئاً ما قد تغير في شكله ومنظرى أيضاً .. لأن زوجتي قد
لاحظت ذلك وقالت في قلق :

- مالك .. شكلك متغير .

- لا شيء .

- تعبان ؟

- أبداً .

- الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون ..

وأمسكت بالتليفون وضربت الغرة .. ورد الأستاذ عزيز في شوق .

- أهلاً يا أخى .. إنت فين .. أنا أبحث عنك من الصبح .

- كنت في مشوار ..

- طيب تعال .. أخطف رجلك وتعال .

ولم أفكر في سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة .. ورحبت بهذه
الفرصة التي تبعدني عن بيتي قليلاً ..

وخرجت لتوى .. لأخذ الباب على جدارنا عزيز .. وفتح لي عزيز
بنفسه .. وقادني من يدي إلى غرفة داخلية وعرفت من الوهلة الأولى
لماذا كان عزيز يبحث عن طول النهار .. كانت برتينة قار حامية تدور
رحابها في الغرفة ..

وقدعني عزيز إلى ثلاثة لا أعرفهم .. الأستاذ فلان .. فلان ..
فلان . والفلان الوحيد الذي أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذي كان
يجلس في مواجهتي وهو رجل نحيل ممصوس له شارب كث يغطي فمه ..
وجلست ألعب وأكسب .. وأقرر في سعادة كالقطة التي أكلت جيداً
ووجدت مكاناً ليأ دافئاً تتمدد عليه ولم أكن أفكر في شيء .. ولم أكن
أرى شيئاً سوى الورق في يدي .. وأبوشب الجالس أمامي كالصنم ..
يسبح في موجة من الدخان .

وسمعت صوت البيانو أتياً من الغرفة البعيدة .. كانت ناني تعزف ..
نفس المقطوعة التي عزفتها يوم عيد ميلاد ابني ..
وكانت الأنغام تأتي إلى أذني رقيقة حزينة ..
أين سمعت هذه الأنغام ؟ ..

أه .. تذكرت الآن إنها مقطوعة .. الطائر السجين .. لفرناندو ..
وكانت الأنغام حزينة جداً .. متعالية مترقعة .. كأنها بكاء إله في
سجنه .

وقطع عزيز الصمت قائلاً :

- أنعرفون لماذا نحب القمار؟

وقلت في هدوء وأنا ألعب :

- لا أعرف .. ولا أريد أن أعرف .

وقال أبو شنب :

- إن ألد أوقاقى هي التي ألعب فيها القمار .. إلى أنسى كل شيء ..
زوجتي .. وأولادي .. وبيتي .. وعقلي .. وأمي ويومي وغدي أليس
هذا هو أجمل شيء في الدنيا .

- نعم .. ولكنك تدفع دمك ثم هذا النسيان ..

- أنى أنسى حتى هذا أيضاً .

وفي الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار .. ولكني كنت أحس أن
كل لحظة أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جداً بالنسبة لى .. وهذا في
نظري سبب كاف لأحب أى شيء ..

وضايقتي أن أفكر هكذا .. وفقدت شهيتي للعب .. فأهديت
الجنينيات العشرة التي كسبتها لعزيزي .. وجلست وحدى بعيداً .. أتفرج
عليه وهو يخسرها ثم يكسبها .. ثم يخسرها من جديد .. ثم يكسبها .. ثم
يخسرها .. ثم يكسبها .. ثم يخسرها .. ثم يكسبها .

وكان قد بدأ يصبح عصيباً .. وأصبح يريد أن يتخلص منها
فيخسرها إلى الأبد .. أو يلقي بها من النافذة .

واستبدت بى الرغبة في الضحك . فضحكت بصوت عال . والتفت
إلى أربعة وجوه في وقت واحد .. في دهشة .

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكاً إلى هذا الحد .
ولكنه في الحقيقة كان يبدو لى في تلك اللحظة مضحكاً جداً .

وأشد ما كان يضحكنى هو منظرهم . وسحتهم المقلوبة .. وأعصابهم
المشدودة .

ماذا يريدون بالضبط ؟!

وماذا أريد أنا أيضاً ؟!

وعاد الطائر السجين يفرد .. بأنغامه الحزينة .

وانقبض قلبي بشدة كأن يداً من حديد قد أمسكت به واعتصرته .
حتى كادت روحي تخرج منى .

وأحسست في تلك اللحظة أنى في حاجة إلى صاحبتى لأكلمهما .
وأبكي على صدرها كالطفل .. وأقبلها .. وأحتضنها .. وأفقد وعيى بين
ذراعيها ..

واستأذنت من الجماعة لأنصرف .. ونظر إلى عزيز نظرتة إلى رجل
غريب الأطوار .. وقلت له مازحاً :

- إن جنينيات العشرة . جنينيات منحوسة .. إنك لن تستطيع أن
تكسبها .. ولن تستطيع أن تخسرها .. ولن تستطيع أن تنفقها .. إنها
كاللعة الفرعونية لا حل لها ..

وخرجت ..

وصافحت أنى نسات الصيف العليله فأترت أن أنسى وتركت عربى
في الجراج .. وسرت استاف الهواء في خيائيسى .. وأهز يدي جانبي ..
وأنظر إلى الناس .. وكل واحد فيهم يسير ملفوفاً في مشاكله كأنه دنيا
صغيرة .. لا يفتق منها الا لحظات . يتلفت حوله ها هو واحد يعرفه ..
وأهلاً وسهلاً . كنت حين . مضى وقت طويل لم ترك . لا بد أن تزورنا يا
أخى .. ثم يعود فيفطس في دنياه ويفلق باب قرته . ويبحر إلى الأعماق
البعيدة في نفسه .

ويبحر .. يبحر إلى أين ؟!!

وتشوقت إلى شاطئ ..

إلى حبيبتى .

كنت في حاجة إلى لحظة راحة .. لحظة سكون .. لحظة عدم تفكير في أي شيء ..

ويبدو أني مشيت كثيراً . لأنني بدأت أحس بألم في عضلات ساقى فأتجهت إلى بيت فاطمة .

وكان أول شيء فعلته حيناً وصلت أني رفعت الساعة وطلبت زوجتي وقلت لها أني سأنتعيب لمدة ثلاثة أيام في سفر إلى البلدة لأعمال ضرورية .

وكانت فاطمة واقفة إلى جوارى تضحك بصوت خافت وحيناً وضعت الساعة قالت في سخرية :

- لقد أصبحت خنزيراً عريقاً في الحزيرية .. إنك تكذب دون أن تطرف لك رمش .. هذه قدرة غير عادية .

وكانت واقفة بقميص النوم .. أمام المرأة .. وكانت تبدو كحيوانة .. حيوانة لم تهذب فيها الثقافة شيئاً . وإنما أطالت أظافرها وشحذت غرائزها .. وأعطتها القوة .. والجسارة .. والواقاحة .. وتركت المرأة لتقبلني في في ..

وقلت أذكركها :

- ماذا ستفعلين في قضية الوقف ؟

فأجابت ضاحكة :

- إن الوقف هو أنت وقد حللنا الوقف .. لم تعد خرابة موقوفة على زوجتك كما كنت زمان .. وإنما أصبحت ملمب كرة .. أليس هذا انتصاراً رائعاً .. هل رأيت دفاعاً يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟

- لا أظن أن الأمر قد تغير كثيراً .. فقد تحولت من خرابة موقوفة على زوجتي إلى خرابة موقوفة عليك .. ومعنى هذا أننا سوف نحتاج إلى محامية أخرى لتحل الوقف من جديد .. إن المشكلة ما زالت باقية ..

- آه .. ماذا تقول .. إلى أذبحك .. وأتفدى على لحكمك إذا حدث هذا .. إن القضايا عندى تخرج من يدى إلى القبر قبل أن تخرج إلى يد

أخرى .. إن المرأة التي تنافسني لم تغلق بعد .. هل تسمع .

- هل أفهم من ذلك أنك تطالبيني بأن أكون مخلصاً ؟

- إلى أفهم شيئاً واحداً هو أني أحبك .

- وهل يعنى هذا أنك تكونين مخلصه لى ؟

- أوه .. هذه مسألة أخرى ..

وجذبتها من شعرها في غيظ ..

- تعالى .. هنا ..

ونظرت إلى ثم ضحكت ..

- يا صغيرى .. إنك تصيح رائعاً حيناً تفغضب .. إلى أموت في غضبك ..

وراحت تقبلني وهي تمس :

- إلى أغبطك .. أنيرك فقط .. أنت تعلم كم أحبك ..

وقبلتها في شفتها وأنا أقول :

- أنت امرأة مجنونة تماماً .. وأنا أحبك لأنك مجنونة ..

- يا شيطاني .. يا طفل الصغير الجميل .. يا حبيبي .. يا جنوني ..

- أحبك .. أحبك .. يا أحمط امرأة في الدنيا .

- وأنا أعيدك .. يا أحمط رجل في التاريخ .

- يا حيوانة .

- يا مسكين . لماذا تبدو دائماً مسكيناً حتى وأنت تقسو وتستم . لماذا تبدو عيناك مسكينتين وأنت تكذب وتغشني وتأنم .. لماذا تبدو بريئاً تصأ دائماً .. لماذا لا يفارق الأمل والحزن عينيك .. لماذا تبدو طفلاً شقياً يتنجا . إن ضعفاك يفقدني صوابي . كم أتمنى أن أفهمك . كم أتمنى أن

أسعدك . لماذا تبدو قلقاً مشتبهاً هكذا . ماذا تريد .. ها أنا ذا بين يديك .
اقتلني ولكن لا تنظر إلى هكذا . إنك تنظر إلى كأنك لا تعرفني . تنظر
إلى بلا عقل . بلا أمل . ما الذي يعتصر قلبك . ما الذي يوزع خواطرك
هكذا : ما الذي يبلبل تفكيرك ؟

وأخذت تهزى بشدة :

- أنظر إلى .. إلى أنا .. لا تنظر هكذا كأنك تعملق في الهواء ..
حلمى .. حلمى ..

- ماذا أفعل وهذه هي حقيقتي .. ماذا أفعل .. أنا مسكين
فعلاً مسكين جداً .. جداً ..
وبيكيت ..
وبيكيت بحرقه على صدرها ..

- ٤ -

كانت فاطمة تجلس وسط الغرفة ملفوفة بقوطة وقد خرجت لنوها من
الحمام .. وشعرها كله مبتل ومرجل ومقصوص إلى فوق .. وهي تفكه
وتسرحه وتضع فيه البنسات .. وتظهرها إلى ناحيتي .. وأنا في الفراش
يجثم على أنفاسي الملل .. وأتقى من أعياق أن تتركني وحدي وتذهب إلى
أى غرفة أخرى ..

وسمعتها تندنن بفمها .. ثم تقوم وتذهب إلى المطبخ . وتنفس
الصعداء .. ونسيتها تماماً .. وقت .. لم أتذكر أنها معي إلا حيناً أيقظتني
وفي يدها كوب من عصير البرتقال ..
وكانت عيناها طيبتين وديعتين .. وقد انطفأت منها الشراسة
القديمة .. وحل محلها خضوع أليف .. وناولتني الكوب .. وقيلتني في
خدي وقالت في رقة :

- أنتجني يا حلمى ..
فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصاباً :
- نعم .

وشربت الكوب في جرعة واحدة ..
ونظرت إلى في عيني .. ولكني أبعدت عيني عنها ..

وقالت في نبرة حزينة :

- أنت لا تحبني ..

فقلت في هدوء وقد أحسست أنه لا فائدة من المضي في الكذب :

- نعم ..

- إذن لماذا فعلت كل هذا ..

- لا أدري .

وسكنت لفترة طويلة ثم قالت في ألم :

- ألن نلتقي بعد الآن ..

ولم أعرف بماذا أجاب ..

ولأول مرة منذ عرفتها رأيت وجهها المتكبر يتضعضع أمامي ثم
يتهاوى في بكاء مر ..

وغمقت من خلال دموعها :

- ألم تشعر معي بلذة ..

فقلت في صدق ..

- شعرت باللذة التي لم أشعر بها أبداً في حياتي ..

- إذن لماذا تتركني هكذا .. وماذا كنت تريد لتحبني .. وتضعضعت
الكلمات في لها من جديد ..

ولم أعرف بماذا أجاب .. ولا ماذا كنت أريد منها .. ولا ماذا أريد
من نفسي ..

- هل أنا قبيحة ..

وأزاحت الفوطة الميتلة لتكشف عن جسمها الجميل المندى بالماء ..

وبحثت بعيني في جسمها .. ذلك الجسم الذي كان يفنتني ويصيبني
بالندوار كلما لمستته .. وأحطتها بذراعي .. ولكني لم أحس بشئ
إطلاقاً .. وبحثت في عينيها عن المرأة الجريئة المستهترة الوقحة التي

كانت تنفض بالتحدي ولكني لم أجد غير امرأة منكسرة .

وخيل إلى من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات ..

ولم أعرف ماذا أحسيتها فيها ذات يوم .. ولا ماذا أكرهه فيها الآن .

كل ما أعرفه اني كنت أشعر بالملل .. وبجاجة شديدة إلى أن أصبح
وحدى ..

أما هي فكانت تنظر إلى في أمومة وحنان وثربت على كفتي قائلة :

- أنت مسكين ..

وتبكي وتسح دموعها .. وتغمغم ..

- ولكني أحبك .. ولا أقوى على فراقك أبداً .. أبداً .. ولم يحدث

أن أحسيت رجلاً كما أحسيتك .. ولا أعرف ماذا أفعل لتحبني .. ماذا
أفعل ..

وكففت دموعها وهست في حيرة :

- أريد أن أعرف ما هو الحب .. منذ أيام كنت أهومك كما أهوم مع

أى رجل .. كنت في نزوة شقاوة .. وكنت أنسى .. وأقضى وقتاً ..

كعادي .. دائماً .. وما أكثر الأوقات التي قضيتها كامرأة مطلقة فاضية

ليس وراءها مسؤوليات ولا مشاغل .. وكانت أوقاتي تنتهي .. وتنتهي

معها نزواتها .. ولكن ها أنذا الآن أمام إحساس آخر تماماً .. وقت

لا يريد أن ينتهي .. ونزوة لا تريد أن تنسج .. ماذا حدث لأحبك ..

وما هو سر هذا التعلق الذي يصبني .. وهذا أنت جالس أمامي ..

ضجر ملول .. تنأف .. وتكاد ترفضني .

- ولهذا تحبني .. انه ليس حباً .. ولكنه كرامة مجروحة .. وأنونة

مهينة .. أنت تريدني أن أتدى في هذا الوقت على أمل أن تنتهي إلى

نهاية تنصفك .. إنه ليس حباً نى .. ولكنه حب لنفسك ..

- أنت مسكين .. أنت لا تصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة .. اني

أحبك .. ماذا أفعل لتصدقني .

- أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس إلا .. أنت مدمنة دنيا .. مدمنة
مخدرات اسمها الرجال .. أليست هذه هي . فلسفتك وكلما بك بالحرى ..
وها أنت تقولين الآن أنك تحبينى وتذوين حيا ..
- إلى أحسن بإحساس جديد .. لم أعرفه أبدا ..
- أليس من الطبيعي أن نشك دائما في الأشياء الجديدة .. وخصوصاً
حينما تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا ..
والحق أنى كنت أشعر بشئ ما في شخصيتها لا أرتاح إليه .. شئ غير
طبيعى ..

لم تقسو اللذة الجسدية التي جمعتنا ثلاثة أيام متوالية على أن تتقلب
على هذا الشعور .. وظلت علاقتى معها بالجسد وحده .. بينا روى
نهم بعيدة ناعرة ..
وكانت لذاتي يعقبها الضيق والندم والهوان .. لأنى تركت جسدى
يسوقنى ويمرئى كالدابة ..
وكنت أفيق أحياناً .. فأقضى أن أخرج .. أهرب ولو من النافذة .
وحينما ضعفت في لحظة .. وبكيت كالطفل .. وكشفت لها عن
غداي .. خجلت ..

خجلت جداً كأنى تعريت أمام إنسان غريب لا أعرفه ..
وأحسست بما هو أكثر من الخجل .. بالكراهية .. وبالنفور منها لأنها
رأت ضعفى هكذا خلسة .. وساورتنى الرغبة في الفرار ..
ولم يعد وجودها حولى يسعدنى .. وإنما أصبح يقضى لى إلى توتر مهم
لا أدرى سببه .

أنا مسكين .. نعم مسكين .. مسكين ..

ولكنها إنسانة غريبة لا أعرفها .. فلماذا تدخل غرفى الخاصة ..

وتنكش في أدراجى .. وتعيث في نفسى ..

أنا لا أريد عطفها .

وكانت تبكى في هذه اللحظة .. ولكنى لم أكن أسمعها جيداً .. كنت
أسمعها بأذى فقط ..

ولكنها لم تفقد الأمل .. وصمتها تقول في مرارة ..

- هذه أول مرة في حياتى .. يفعل بى رجل ما فعلت ..

وضايقتنى هذه الملاحظة .. هل تريد أن تفهمنى أنها كانت مناورة

منى ..

وعادت تقول في مرارة :

- كنت أنا التي ألهو بالرجال .. كنت أنا التي أرفضهم .. وأكسر

قلوبهم .. ماذا حدث لى ..

وأخذتها الكبرياء فجأة فهبت واقفة ثم تركت الغرفة .. وغابت فترة

طويلة عادت بعدها بكامل لبسها ووقفت تضع الروج أمام المرأة ..

وهى تقول في جفاف :

- أنا أكرهك .. ومن أنت حتى أحبك .. أنت رجل مثل أى

رجل .. انى أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أمالك ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة وأردفت :

- هل صدقت حينما قلت لك أنى أحبك .. إلى أضحكك عليك ..

وتلك عاداتى دائماً حينما أريد أن ألهو .. فأنتم لا يعجبكم إلا الكذب ..

لأنكم أنتم أيضاً كذابون وعواطفكم كاذبة ..

وسكنت فجأة لتقول :

- أنظن أن هناك في الدنيا شيئاً اسمه حب ..

وأجبت في إخلاص :

- لا أدرى ..

- هناك ليالٍ كتلك التي قضيناها معا .. يذهب بعدها كل واحد إلى حاله .. ولا يوجد شيء غير هذا .. أما بقية الأشياء التي يرونها الناس فهي أكاذيب .. الوعود أكاذيب .. العواطف أكاذيب .. الإخلاص كذبة تستعبدوننا بها لتكون لكم طول حياتنا ثم تلعبون أنتم على كيفكم ..

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمة .. التي عرفتها ..
وأحسست أيضاً .. أنها تكذب .. وأنها أيضاً كانت تكذب .. وأنها دائماً تكذب ..

- وإن هذا الشيء الغير حقيق فيها هو الذي ينفرد ..
وإن هذا الشيء هو المسافة الشاسعة التي ظلت قائمة بيننا .. والهوة التي لم تستطع لذة الجسد أن تعبرها لتوثق بيننا أواصر الحنان والمودة ..
ونظرت إليها .. هذه المرة في عطف .. فقد كانت هي الأخرى مسكينة .. وكانت تمسح شعرها في المرأة .. وتضخ اللادن في صوت سموع .. وتطرقع بأسنانها وهي تمضغ .. لتحدث صوتاً ..
وكان سكوتنا ثقيلاً كريهاً .. وكان يشوش على أذانتنا أكثر من الضجة ..
وقت من الفراش .. وبدأت أرتدى ثيابي ..

وحينما نظرت إلى المرأة .. لم يعجبني وجهي .. كان يبدو بليداً وتذكرت اللحظة التي دخلت فيها منذ ثلاثة أيام حينما نظرت إلى وجهي في نفس المرأة .. وكان يبدو مشحوناً بشيء آخر .. أمل .. أو حلم .. أو نشوة

كان أجمل بكثير من الآن .

ونظرت إليها .. كان وجهها هي الأخرى معنا ..

وانجبتها إلى الباب في وقت واحد .

كان كلانا يشعر برغبة في الخلاص .

وعند الباب تصافحنا في برود .

ثم تبادلنا نظرة طويلة .. هي مزيج مختلط مشوش من كل المرات والآلام التي أحسنا بها طيلة هذه الأيام الثلاثة ...

وبقينا لحظة صامتين ...

ثم انصرفت مسرعة ...

وخرجت لأمشي بدون وجهة .. وأنا أشعر في داخل بحيرة لا نفع لها ...

وتذكرت ميمادي مع الخواجة متری ... التاجر المعجوز في البورصة ...

ونظرت إلى ساعتى .. كان باقياً على الميعاد نصف ساعة ...

ومشيت في هدوء في طريق إلى البورصة ...

ترى ماذا يريد مني الخواجة متری ...

وفي البورصة كان متری واقفاً ينظر في ساعته بعصبية وينظر إلى الباب ...
وحينما رأتني تهلل وجهه وأخذني تحت إبطه ... وخرجنا .
وسألني عن مشاريعي وعن حال الزراعة والأرض في الصعيد ..
وقلت ..

- الأحوال بخير يا خواجة ...

فضحك وهو يجاوبني ..

- أنت دائماً تتدأبنى يا خواجة .. الظاهر إنك تعتقد أني خواجة صحيح ..

- إن مظهرك خواجة قملًا ..

واستغرق في الضحك ثم أردف :

- يا حبيبي أنا صعيدى ابن صعيدى .. يظهر إنك لم تذهب إلى

الصعيد أبداً .. إنهم هناك يسمون الذى يلبس بدلة خواجه .. لقد عشت فى الصعيد أربعين سنة .. ولى ذكريات مع والدك حينما كنا نكافح معاً هناك أيام الشباب ..

وأخذنى إلى مكتبه .. وأتسل سيجاراً .. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة .
- لقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشترك فيه سويًا .
إنى أفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف جنيه .. ما رأيك ..

ولم أجاب .. وإنما أخذت أفكر وقال هو ..

- طبعًا انت فرحان بالفقادين التى ورتتها .. وكل هلك أن تنام عليها مثل كل الأعيان .. اسمع كلامى إن الأرض لم تعد وسيلة للمكسب إن مكسبها الآن تعبان .. وخصوصاً لمن يؤجرها منك .. إنى أعرف الصعيد وأحواله . إتنا الآن فى سنة ٥١ والأزمة فى قتها .. الفلاح يستأجر الأرض الآن ولا يسدد شيئاً من إيجارها لسبب بسيط لأنه مدين بكل شئ .. مدين بسقى الأرض لصاحب وابور الماء ومدين بتسميدها لوكيل شركة عبود ومدين بزراعتها لئيك التسليف حتى محصولها يباعه سلفاً بالبخس للمراعى على سلفة عشرة جنيهات يعيش بها .. وفى النهاية وبعد كل هذا الكدح يكسح النبل زراعته ويقرعها .. ماذا تستطيع أن تفعل انت أيها المالك مع مثل هذا الفلاح .. إن كل ما تقدر عليه هو أن ترفع عليه قضية إخلاء .. ثم تأخذ حكا بالإخلاء .. ثم لا يجد الفلاح حلاً سوى أن يطلق عليك الرصاص .. أو يستأجر عليك الخط وعود .. وهذه آخره الأرض .. ومشاكلها ..

إنك لا تعرف الفلاح فى الصعيد .. إنه ما زال يستشير حماته كل يوم وهو ذاهب إلى السوق .. ويسألها هل يبيع القمح ام لا يبيعه .. فإذا رفست برجلها .. عاد أدراجه ولم يبع شيئاً ..

وأنت تريد ان تضع رزقك وعمرك وأرضك فى يد هذا الفلاح .. وتنتظر أن تصبح غنياً .. كلام فارغ .. اسألنا نحن .. نحن جريتنا من قبلك كل هذه الأشياء .. إن سر الفنى فى التجارة .. وليس فى الزراعة ..

- وماذا تريدنى أن أفعل ..

- تنخلص من هذه الأرض النحس وتشتغل معنا فى المكتب ..

- وإذا لم نجد شيئاً نصدره أو نستورده .. وأنت تعلم ظروف التجارة الخارجية وقبورها ..

فضحك ضحكة صفراء .. وقال :

- نبيع أدوات الإستيراد نفسها .. وتتاجر فيها ..

فقلت فى تردد :

- ألا يعتبر هذا عملاً غير قانونى ؟

فضحك ضحكة أكثر اصفراراً وأردف ..

- أى شئ حولك قانونى .. إن كل شئ غير قانونى .. إن المال الذى تعيش منه غير قانونى ..

إن المائة فدان التى ورتتها عن المرحوم والدك .. كان شراؤها على يدى .. وكانت نقودها من ألعاب البورصة التى قنا بها بالاشتراك مع سمارة فاروق وانتهت بإفلاس أكبر البيوتات التجارية .. والحكاية كانت لها صدى فى كل الجرائد .. ولم تكن قانونية بالمرءة .. لقد كتبنا عقوداً بأكثر مما نملك من أرضة قطنية .. وهذا تزيف .. وهكذا ارتفعت الأسعار بالكذب .. وكسبت أئوف الجنيئات والفقاديين ..

ويظهر أنه لاحظ المرح الذى بدا على وجهى فأسرع يقول :

- وهذا حال التجارة دائماً .. ليس فى التجارة شئ اسمه قانون ..

التجارة فى حقيقتها هى تنظيم النصب .. والإنزاع بعقد الصفقات على

الورق فقط بدون شقاء .. وبدون عرق ..

حيناً يكون لك مكتب استيراد وتصدير فإنك سوف تشارك في ربح
المصنع وربح الدكان .. دون أن تعمل شيئاً أكثر من أن تجلس على
مكتبك وتحرق عقوداً .. أليس هذا أفضل من المتاعفة مع الفلاحين
المعدين في الصعيد .

إن النصب في كل مكان حتى في الزراعة .. وأنت حيناً تقاضى
فلاحاً مديناً لا يملك سوى ذراعيه وتخرجه من أرضك . أليست نصايأ ؟ !
إن النصب في كل مكان .. يظهر إنك جديد على أمور الدنيا .
إن الدنيا يا حبيبي نصب في نصب .

فكر في المشروع الذى عرضته عليك .. لقد كنت أحب أباك
وأنفاهل بالعمل معه .. وأنا أريد أن أتعاون معك .. سوف أتركك يومين
ثم أكلمك مرة أخرى ..

وصافحتي .. وأوصلني حتى الباب ..

وخرجت .. وكل شئ يبور في دماغى كالدوامه .

وكان الحديث القصير الذى تبادلته مع الخواجة مترى صدمة
لأعصابي .

فقدت الكثير من ثقي .. وإيمانى .. دفعة واحدة .

وأحسست بالقسوة الشديدة ..

كان كلام الخواجة مترى فيه قسوة .. سودت الدنيا في وجهي .

كان فيه اتهام لوالدى .. ولثروقى .. وللعممة التى أمرح فيها .

لا فائدة .. الدنيا نصب في نصب .. تماماً كما تقول فاطمة ..

هل صحيح أن الدنيا نصب في نصب ..؟

الحق أنى لم أجد حجة أقيها على كلامه .

أنا نفسى كنت أقوى إثبات لهذا الكلام .. فنذ ثلاثة أيام وأنا أخون

زوجتى مع امرأة لا أحبها بدون سبب واضح ..

ومع هذا فقد كنت أشعر أن كلامه كذب .. كذب .. الدنيا ليست
شرأ كلها .. ولا أنا شرير كلى ..

القلق يهزى في داخلى .. أنا أنتذب ..

كلنا نتذب .. ونبتع عن حل على قدر فهمنا ..

وذهبت إلى بار ماسيرو .. وطلبت كوباً من النبيذ . وكانت الوجوه
حولى تثبت لى إننا جميعاً مساكين .

كان كل واحد يحملى في الهواء .. كأنه يطارد ذبابة وهية .

وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف ، وأحصى الوقت الذى
تستغرقه الزجاجاة لتفرغ .. وأحصى في دماغى عدد الشوراع وعدد
البارات .. وعدد سكان القاهرة .. وعدد سكان العالم .. وما يشربه
الناس من السم كل ساعة ..

وكانت نتيجة الإحصاء مضحكة .. خمسة ملايين زجاجة ويسكى

يشربها سكان العالم كل ساعة ..

ألا يبعث هذا على الإنفاق .

وأخرجنى البارمان من تصوراتى .

وهو يلا كوب النبيذ قائلاً :

- أتعرف مم يصنعون هذا النبيذ الفاخر . لقد رأيت العنب ينقى في
بورديو . كل حبة مضية .. كأن الشمس مبعأة في داخلها ..

- أنا لم أت هنا لأشرب النمس .. لقد جئت لكى أخذ ضربة على
رأسى .. ابعت لى عن نبيذ آخر مصنوع من العصرم القديمة .

وضحك البارمان وقرب منى صحناً به جامبون .. وهو يمس :

- وهذا جامبون طعمه كطعم القبلات ..

وقف ثلاثة من الشحاذين يمسزون البياتولا أمام البار وبدأوا

يلعبون .. ويصرخون .. ويضحكون .. ودخل أحدهم يجمع القروش في
قبعته وكان وجهه مدهوناً بالسبباج وعليه لطفان حراوان : وكان قد
يضحك .. ولكن عيناه كانتا حزنتين جداً .

وكان طعم الحاميون ألد من طعم القليلات في في . وكانت الموسيقى
سخيفة . ولكن طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسى .. وكان البارمان
واقفاً أمامى يلوى شفتيه في إشتزاز .

- ما الذى يعجبك في هذه الدوتنة ..

- إن مقعولها أسرع من مقعول نبيذك الفاخر ..

- إنك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحدك على أنتمام
البياثولا .. أنت في حاجة إلى غادة هيفاء عيونها سود .. تنظر إليك
وتنظر إليها .. وإلى شئ هنا في قلبك يأكله من الداخل .

- حيناً يكون هناك شئ في قلبى يأكله .. فإن كل شئ اشربه سوف
يتحول إلى نبيذ .. سوف تكون المياه العادية نبيذاً .. لن أكون في حاجة
إلى من يعصر لى عنب يورود ويعبى لى الشمس في زجاجات . سوف
أكون أنا الشمس التى تنع في كل الزجاجات .. أهد ربنا يا خواجه
على أن قلبى فارغ .. وإلى أكل بعضى . فلهذا جئت إليك .. ولهذا
يأتيك الزبائن كل يوم . وتجيد رزقك ..

- أنت فيلسوف يا أستاذ حلمى .

- أنظر ذلك ..

- وهذا مقعول نبيذى أيضاً فهو يصنع فلسفة في المخ .. إن كل
الفلاسفة متخرجون من عندى ..

وجرعت الكوب دفعة واحدة .. والظاهر أنى كنت أريد أن أنتعرج
بسرعة .. واختق البارمان .. ونسيت أن أسأله .. أين ينهب المجتهدون
في الشرب .. هل يصبحون أساتذة في الفلسفة .. أم يصبحون مجانين ..

وكان في الركن رجل عجوز أمانة زجاجة براندى كاملة .. وكان
يتحرك بصعوبة .. ويسمل سعالاً جافاً .. ويصب في جوفه الكأس بعد
الأخرى ..

وحيناً كنت أعود في المساء إلى بيتى .. ويدأى في جيوبى .. كنت
أسأل نفسى .. ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى كبده
هكذا ..

وكنت أرى في الظلام وجهه الترابى المريض .. وأسمع سعاله الجاف
وأذكر كلام الخواجة مرقى .. بأن كل الناس وحوش .. يفتسون
بعضهم البعض .. ولا أصدق .. لا أصدق أبداً ..

إننا نقتل أنفسنا ..

نحن مساكين ..

ودخلت البيت .. وغمرنى الضوء الشديد في الصالة .. واستقبلنى
زوجتى مثقلة .. وسألتنى عن حالة الزراعة في البلد ..

وتذكرت أنى كذبت عليها لأتخيب هذه الأيام الثلاثة .. وأجبتها وأنا
أتجنب النظر في عينيها ..

- كل شئ على ما يرام ..

- وماذا فعلت مع علوان ..

- ومن هو علوان هذا ..

- الرجل الذى أحرق الذرة .. لقد حسبت أنك حضرت الحادثة ..

لقد وصل خطاب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطاباً منك
ولكنه كان من ناظر العزبة يروى فيه ما حدث من علوان .. وحادث
إحراق الذرة ..

فقلت يارتباك :

- أه .. هذه الحكاية .. لقد سسوها حيناً وصلت والحالة الآن هادئة

تماماً ..

.. وقالت وهي تضم يديها إلى صدرى ..

- الحمد لله .. لقد كنت قلقاً عليك ..

ولم يبد عليها أنها تشك في شئ ..

وكانت غرفة الاستقبال مضامة وقالت لى ان مدام عزيز عندنا ..

وأنها سهرانة عندنا الليلة لأن زوجها مسافر إلى الإسكندرية ..

وصاحت : نانى .. نانى .. لقد جاء حلمى ..

وخرجت نانى .. وكانت تلبس فستاناً أسود وتضع على كتفها وشاحاً

أحمر وكان الوشاح الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه فص من

العقيق ..

وتصافحنا .. وعادت إلى مقعدها وكان في يدها بلوفر تستغل فيه ..

وكانت تنحني على التريكو وهي تعمل ويتدل شعرها كالبارفان فينحني

وجهاً ..

ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزيح شعرها فتبدو أهدابها الطويلة

تختلج في اضطراب ..

وكنت أحس وأنا أنظر إلى أهدابها أنها تفكر .. وأن عقلها يضطرب

وراء تلك الأهداب ..

وقلت لأخرجها من صمتها ..

- لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية في الدنيا ..

فرفعت رأسها الصغير وابتسمت وتورد خداه .. ونظرت إلى في

امتنان .. ولم تتكلم ..

وقالت زوجتى ..

- إنها ترسم أيضاً .. ولها أعمال كأنها رائدة .. إنها فتاة أنظر هذا

مفرش اشتغلته لنا ..

- رائع .. رائع .. أين تعجدين الوقت لعمل هذا كله ..

وصمتت نانى لحظة قبل أن نجيب ثم قالت وهي تنظر إلى الأرض ..

- ليس في الدنيا شئ أكثر من الوقت .. إن لدى دائماً وقتاً طويلاً ..

طويلاً .. أريد أن أتخلص منه ..

ورفعت رأسها لتنظر إلى نظرة خاسطة ثم عادت تعمل في سرعة

وعصبية ..

ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينها ..

أرى الوحدة .. والفرقة .. والاستسلام الحزين الكامن فيها ..

وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها ..

ولم أعرف ماذا أقول بالضغط ..

ولكن كنت أثنى أن أسمعها تتكلم أكثر .. ولكنها صمتت وعادت إلى

التريكو ..

وقامت زوجتى لتحضر الشاي ..

وقت إلى البيانو وفتحته .. وبدأت أعبت في مفاتيحه ..

- أجل شئ في الدنيا أن يكون الإنسان موسيقياً .. أنا كنت طول

حياتي أثنى أن أكون موسيقياً .. كانت هذه أمنيى ..

وأخذت أعبت برهة ثم قلت :

- ألم تكن لك أمنية .. وأنت صغيرة ..

وفوجئت بهذا السؤال ..

- أنا !!

وترددت لحظة .. ثم قالت في وداعة وهي تبسم ..

- كنت أثنى أن أكون ولداً .. فقد كنت أرى الأولاد حولي يفعلون

كل شئ .. وأنا والبنات نستأذن لنفعل أى شئ .. حتى إذا أردنا أن

نشرى ..

وجاءت زوجتى بالشاي .. وأخذتنا نشرب في صمت .. وطلبت من

نائى أن تعزف لنا شيئاً ..

وجلس نائى لتعزف مقطوعتها المفضلة .. وكنت أقف أمامها متكئاً

على البيانو أنظر إلى أهدائها وهى تخرج ..

ولفئ النغم فى موجة من الحزن .

وسألتها : لماذا تعزف هذه المقطوعة دائماً .. ويكل هذا الحزن ..

فقال أنها لا تدرى ..

ولكنها حيناً رفعت وجهها .. كانت عيناها مكسوتين بغشاء رقيق من

الدموع ..

- ٥ -

كانت الشمس تنام إلى جوارى فى شريط دافئ ممد بطول
السرير .. وكنت أغمض عيني وأحاول الاسترسال فى الأحلام الرقيقة
التي أحلمها ولكن الضوء الشديد كان يؤلم جفوني ويدفعنى إلى أن
أفتحها .. وأفركها وكانت زوجتى إلى جانبي .. تنكلم كلاماً كثيراً
لا أفهمه ثم سمعتها تبكى وتقول بصوت متهدج :

- أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أبيك .. ولكن ما جدوى هذا
الحزن .. منذ شهور ونحن نعيش بيدين منفصلين كأننا غرباء .. هل
أعاد حزننا الحياة إلى الميت ..
وأفقت تماماً على كلماتها .. وثيقت .. ومسحت على وجهى .. وأنا
أفكر فى كلماتها .. كلمة .. كلمة ..

هى تعتقد إذن أن عزوفى عنها سببه حدادى على والدى ..
ولم أعرف .. هل أفرح أم أحزن .. هذه الطيبة .. وهل هى طيبة أم
غفلة !!

لو علمت زوجتى بكل ما حدث فى الأيام الماضية .. أنقل على
طبيعتها أم تبصق فى وجهى ؟
وقنيت فى تلك اللحظة أن أقول لها كل شئ .. وأن أكاشفها
بالحقيقة ولكنى جيت ..

ودخلت الخادمة .. وكانت عيناها واسعتين من الرعب ..
- سيدى .. سيدى .. البواب يخطط على شقة عزيز جازنا من
الصبح ومففى حد يفتح ..

- لازم خرجوا ..
- مش معقول ياسيدى .. عزيز مسافر والست لا يمكن تخرج
الساعة دى ..

وقفزت زوجتى من الفراش مرعوبة :
- صحيح .. لا يمكن نانى تخرج فى الساعة دى .
وهرولت إلى الباب .. وأنا أجرى خلفها .. والخادمة تعرج
وراءنا .. ووقفنا ثلاثنا ندق على باب الشقة بأدينا فى وقت واحد ..
ومرت دقيقتان .. وسمنا صوتاً خافتاً يشبه الأنين .. واصفر وجه زوجتى
وابيض حتى أصبح فى لون الشدبل الأبيض .. وأخذت تهرز الباب فى
عنف ..

وترامى إلى أذناننا صوت حركة بطيئة .. ثم وقع خطوات تقرب ..
ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب .. وكانت نانى واقفة .. أجفانها ثقيلة
وارمة وتحت عينيها غضضون زرق .. وهى تنظر إلينا فى دوار النوم ..
كأننا خيالات فى أحلامها

وكان جسمها الصغير يتطوح ..
وأخذتنا زوجتى بين ذراعيها ودخلنا ..
كانت الغرف كلها نظيفة منمطة .. وكل قطعة من الأثاث فى
مكانها . وفى غرفة النوم كانت الأباجورة مضية .. وعلى الكومودينو إلى
جوار الفراش .. لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة .. وكتاب
لبزاك مفتوح على الصفحات الأخيرة ..
كان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوماً لتعالج

الأرق .. فنامت والأباجورة مضية .. إلى هذه الساعة من الصباح ..

وهذا كل ما حدث ..
وأفرخ رعبنا ..
وجلسنا إلى جوارها ألقط أنفاسى .. وأنا أشعر بالهرج .. لقد
سرفت منها النوم الذى توصلت إليه بالأدوية ..
ودفعت زوجتى لتعد كوباً من الشاي ..
وقت أنا إلى النافذة .. ألوذ بوحدى من إحساس ثقيل بالذنب .

كنت أفكر فى الأربع زجاجات من الأدوية المنومة .. وأنا أقود غربى
بسرعة فى عصر ذلك اليوم .. وفى المقعد الخلفى كانت تجلس زوجتى ..
وأيننا وثانى .. وكنت أسمع نانى تضحك وهى تداعب أبنى .. وأنشاهد
صورتها فى مرآة العربة .. وشمورها المرتب بساطة . وعينيها العميقتين
جداً .

وجلسنا فى كازينو على النيل .. وكان النيل فى الفيضان . والمياه
عالية كيطن الحامل ..
وكنت أشعر بالسعادة وأنا أنظر إلى الملهج الحمراء وهى تجرى وتجرى
كأنها دم فى العروق يتجدد كل لحظة ..

وكانت الشمس تبيل إلى الغيب .. والألوان تغير بسرعة . وتأخذ
معهما وهج النهار . وتطفئ فى بحيرة رمادية ..
وكانت العمارات على الكورنيش تنطمس رويداً رويداً وتذوب فى
ذلك المخلع الرمادى . فلا يبق منها إلا مساحة طويلة بطول الشاطئ ..
مساحة قائمة بلا معالم ..

وكنت أفق من الحسدر الذى يبعثه اللون الرمادى فى حواسى على

صراخ ابني وهو يجذب أمينة من نوبها ويشلور بيده الصغيرة إلى المراجع في آخر الكازينو.

وأخذته أمينة .. وذهبت به إلى المراجع .. وهو ينط ويقفز .
وبقيت وحدي مع ناني .. وكنت أنظر في عينيها وهما يزدادان اتساعا مع الغروب كعيون القطط .. ويعتان في نفسي أكثر وأكثر ..

ذلك الإحساس الغامض بالعمق .. وكنت أفكر في زجاجات الأدوية المنومة على الكومودينو .. وسألته فجأة :

- هل تتعاطين منوماً على الدوام ؟

- أحياناً .. حيناً يطول بي الأرق ..

- ولماذا يطول بك الأرق ؟

وسكنت ونظرت في وجهي مترددة وقلت مشجعاً :

- ليس هناك في الدنيا شيء يستحق أن نتم به .. كل شيء ينتهي ..

الماضي يفوت .. والحاضر يفوت .. وأسوأ مستقبل مثل أحسن مستقبل يفوت هو الآخر .. قيم القلق والأرق .. ولماذا نتم بأي شيء ..

- انت تتكلم كرجل عمره مائة سنة .

وعادت تنظر في وجهي بركة وتردف ..

- ومع هذا فأنت نتم .. وتقلق .. من أجل أشياء كثيرة صغيرة

أحياناً .. أليس كذلك ؟

- نعم .. أحياناً .. لأنك ..

- أترى انه لا فائدة من الحكمة .

- ولكن لا أحب أن تعذب مني .

- أهو اهتمام آخر .. هل أنصحك أنا أيضاً .. وأقول لك أن الماضي

يفوت .. والحاضر يفوت .. وكل شيء يفوت .. ولا داعي للاهتمام

والقلق بأي شيء أو بأي إنسان .

وسكنت حيناً وأثنى مستسلماً حزيناً ..

كنت في الحقيقة محتاجاً إلى هذه النصيحة أنا الآخر .. وكنت

أواس .. نفسي بلا جدوى .. وضحكت ..

ولمعت عيناها على نيرة اليأس في ضحكتي ونظرت إلى ..

كانت تبادلني نفس الإحساس المرير بالحيرة ..

- ماذا نريد بأنفسنا ..

- نعم ماذا نريد بأنفسنا ..

وأردفت في حرارة دون أن تفكر :

- أنا أريد أن أحيأ ..

- وحياتك التي تمسيتها ؟

- وحياتي .. أي حياة تقصد .

وسكنت في يأس .. ولمعت عيناها بفناء رقيق من الدموع . ثم قالت

في صوت خافت :

- ربما اطلعتك على حياتي يوماً ما .. إلى أكتيها .. أحياناً أكتب من

فرط اليأس .. ومن فرط الوحدة ..

وتأرجعت على شفتيها ابتسامة واهية ..

وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة ..

وثلاث نظراتنا .. وكأن شيئاً ما يشدنا إلى بعض .. ولم تتكلم .

وقطع صراخ ابني صمتنا .. وكان يجري نحونا وينط ويقفز ..

ومن ورائه أمينة .

وجلس أمينة .. وجلس ابني إلى جوارها .. وارتفع صوت الملاعب

وفناجين الشاي .. وثرثرة الطفل .

ولكني ظللت متدبرة إلى ناني طول الوقت .

ولم يتغير الأمر كثيراً حيناً عدت إلى البيت ..

وحينا استغرقت في اعمال مكثي لعدة أيام متوالية لم يتغير الامر كثيرا .

ظللت مشدودا طوال الوقت بمجال خفية .. بدنيا اخرى غير دنيا عمل اليومي ومصالح الطعام والشراب وتزنة كل يوم .. هي دنياها .. وجودها ..

ظلت مائلة امامي حاضرة في ذهني طوال الوقت .

وحينا القيت بنفسي في فراشي آخر الليل كنت اسأل نفسي اية رابطة من حديد تربطنا .. واتذكر علاقتي بغاطمة .. ان الامر مختلف تماما . ان وجودنا الى جوارى يفتح لي عالما اليقا امنى فيه .. امنى .. امنى .. ولا اتمنى .

اشعر يروحي تصادقها وتأوى اليها كما تأوى الى ظل شجرة . بدون هدف .. بدون غاية .

واشعر بالأغوار العميقة خلف عينيها . تتكشف لي عن احساسات اعانيها .. وآلام اعيشها واعرفها .. وكأني ادخل بيتي .. وانجول في غرفتي .. واجلس تحت ضوء مصباحي الاخضر ..

اشعر برغبة في الافضاء .. واقتناء مكتوي اليها .. وفض اسراري بين يديها .

ويحيل الى احيانا ان بعض كلماتي تصدر عني .. وكأن المهاجر الذي يقصنا سقط . وانفتحت فيه نغمة تتصل منها وتخطب وتخرج .

احساس غريب يخيم عليه الامان .. لا تستعجلي فيه رغبة .. ولما يتصل في نهر من الحنين دائم الجريان .

هل كنت اجسم لنفسى هذه المشاعر وانا نائم بالليل ؟

هل كنت احلم واتحيل ؟

لا ادرى ..

ولكني حينما تيقظت في الصباح كنت احمل هذه المشاعر معي الى مكثي .. واعدوها الى البيت .. وانظر بها في صندوق الخطابات .. وانتب وافتح كل الخطابات بلهفة .. وابحث عن امضائها . وقد استولى علي شعور بأنها لابد مرسله الاوراق التي تكتبها عن حياتها . لأعيش معها . كنت اريد ان اعيش حياتها معها .



كان الحواشي ممتلئ في التليفون بلهجة انتصار .. وحينما وقفت في النافذة انتظره .. وأنيته يزل من عربة كاديلاك آخر موديل ويفتح المكتب .. ثم يقف .. ويمتشق قوامه وتلفت حوله بنظرة ظافرة ويهتف .

- ما رايك الان يا استاذ .. لقد رفضت ان تشترك معنا في مكتب الاستيراد .. وهذه اول خبطة لنا بعشرين الف جنيه . ما رأيك تعالى افتح دفاترك وقل لي ماذا كسبت من زراعة البصل في هذه اللفة بصراحة ؟

ولم انكر اني لم اتلق مليا واحدا من البلد ..

ولم انكر ان المكتب الهندسي الذي اديره فاشل .

ولكني انكرت بشدة أني نادم .. وأني شاعر بان نصف عمري قد ضاع .. فانا غير مقتنع بالعمل الذي يعمله وانا مازلت غير مقتنع به وليس لدى فكرة المساهمة فيه والحكاية ليست حكاية فلوس .

- الحكاية ليست حكاية فلوس .. اشكر . هل تسمح وتتنازل لي عن فلوسك .. وارضك واطيانك وتسريح من عنائها .. وتمعيش سعيدا يتقافتك .. ما هي الحكاية اذن يا صديق .

- الحكاية هي ان اعيش كما انتهى .. اكسب على طريقي .. واهل العمل الذى لا أقتنع به .

- وهل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟

ولم اجب ..

وقال الخواجه مرقى :

- انا اكلمك كأخ كبير وصديق حميم للمرحوم والدك . انا لا تعجبني احوالك . ولو تركت نفسك فى هذا الطريق فسوف تصبح على الحديدة بعد سنوات .

وخيطنى على كتي قاتلا :

- اسمع ما زالت امامك فرصة للاستراكم معنا . فكر .. انا لا اريد ان اخسر كسريك .. انا اتق بك واحبك .. اسمع كلامى .. الارض نحس .. اخلص منها .. انت لم تخلق للزراعة ..

وخرج مرقى .

وحينما كان يدخل فى عربته الكاديلاك الفارهة .. وانا انظر اليه من النافذة .. كانت كلماته مازالت تترقأ أذنى ..

هل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد .. هل انت مقتنع بالفلس التى تخسرها كل يوم فى المكتب .

والحقيقة انى لم اكن مقتنعا باى شئ من هذا .. انا لم اخلق لهذه الانبياء .. لم اخلق للزراعة ولا التجارة ..

والحقيقة انى لم اكن اعرف لاي شئ خلقت .

ولم اكن اعرف ماذا أريد بنفسى .

لم اكن اعرف الا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى اسميه الحياة . هي وقوفى الان فى مكتب هندسى فائسل لا امت اليه بصلة ..

واغلقت دفاترى واغلقت النافذة . ثم اغلقت الباب بعدم اكترات ونزلت السلم .. وتركت نفسى اضرب فى الطريق من شارع الى شارع فى مشية متراخية الى بيتى .

وتلففتى الحيات التى كانت تصاحبني منذ الصباح .. وتذكرتها وتذكرت عينيها .. وتلهفت على حديثها .

وحينما وصلت البيت .. كان اول شئ نظرت اليه هو صندوق البريد .. وهناك كانت حزمة من الاوراق تنام فى الصندوق وعليها اسمى وعنوانى .. وقفز قلبي بين ضلوعى .. وانتزعتها فى لهفة وصعدت السلم وثبنا . ثم دخلت غرفتى واغلقت الباب خلى .. وفنتحت الاوراق كانت منها وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى عجلة وانفعال :
وألقيت بنفسى فى مقعدى : وبدأت أقرأ ..

اول شخص اعى عليه هو شقيقى الكبرى والوحيدة .. واول حادث اذكره هو حادث بين اختى وزوجها .. كل منها ينتم الى الآخر ويلوح بيديه فى غضب .. ثم اختى مغنى عليها .. وانا اصرخ بأعلى صوت .. وسكان العمارة يهرولون لاسعافها .. وكان ذلك فى قنا مقر عمل زوج اختى مأمور الضرائب الذى يكبرها بثمانية عشر عاما .. وبعد ذلك وعيت على ابي الطبيب الكبير الذى يحشاه كل فرد فى البيت ويرتجف منه .. وانا لا اجسر على الوقوف امام المرأة لا مشط ضفائرى خوفا منه فأدخل الحمام واغلق باب من الداخل واسرح شعري وجو البيت الملئ بالمنوعات .. ممنوع من الخروج .. ممنوع الوقوف فى البلكون .. ممنوع الذهاب لمزلق خالى الا بصحبة احد اخوتي .. ممنوع الذهاب الى السينما .. والسينما لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت

حراما .. لان ابى شاهد مرة فيلما عربيا .. وكان رصاصة في القلب ..
فخرج ساخطا من نصف الفيلم وأخرجتنا معه لان البطلة التي كانت
مخطوبة احبت شخصا آخر غير خطيبها ومحت لنفسها في يوم عقد
قربانها ان تختل بحبيبها في الشرفة تبوح له بحبها .. وهنا ثارت ثائرة
ابى .. وظل يلعن السيئا والميادىء التي تنادى بها .. واختتم تورته بان
حرمها علينا ..

ولكنه بالرغم من شدته وصرامته .. كان طيبا حنوننا يمرض الى
جوارنا اذا مرضنا .. ويكي ليكنا .. ويطمئن يده .. ويفنى لنا .. على
عكس امي الجافية القاسية وهي تخرج وتدخل على كيفها .. لا تشغلها
الا شئوننا وزواتنا ويايها وزياراتها وصديقاتها .. ولا يهمها ان كنا
موت او نعيش ..

واذكر مرة .. بل عدة مرات .. دعواتها بان يأخذنا الله .. اثنين ..
اثنين .. اى والله .. كانت تصرخ بأعلى صوتها .. لو كان ربنا يرحمى
وبأخذكو .. الهى يميني خيركو .. وتطلعا كل اثنين في خشية !!
لن انسى هذا اليوم .. ونحن ننظر الى بعضنا في صمت وترمقها في
كراهية ..

وكانت امي هي الصخرة التي تتحطم عليها صلاة ابى وشدته ..
كان يقضى النهار في الصراخ والشجار معها .. فاذا احتواها الفراش
بالليل ذابت تورته وذاب شجاره وتحول الى حل وديع تهدده على
صدرها وتأمرة وتلهو به كيف شاءت ..

وكنا نعلم نحن الصغار .. ان امي تلهو بابى .. وتثنى على كيفها ..
كنا في اشهر الاجازة الصيفية تسافر كلنا الى العزة ويبقى والدي في
القاهرة للعمل في عيادته ..

وفي العزبة كانت امي تفرح على كيفها مع عمى العمدة الوارث

الجميل الذى لا عمل له سوى ركوب الخيل واطلاق النار في الهواء
واصطحاب امي بالليل والنهار .. وضحكاتها ترن في الحقول .. وخلف
الابواب المغلقة بالليل ..

وكنا نرى ونسمع ونسكت .. ولا يخطر على بالنا ان ابى يعلم من
هذا الامر شيئا .. حتى فوجئنا بعد سنوات بخفاقة تهترها ارجاء البيت
واى يصرخ بانه سبق ان نبها الى سلوكها المشين في العزبة فلم ترتدع
وقادت في علاقاتها الآثمة .. وانه لا يجد امامه وسيلة الا الاطلاق ..
الطلاق في سكون حتى لاتضار سمعة العائلة ..

وكان معنى هذا الطلاق ان تظل امي كاهى في البيت .. ويزورنا هو
كالمتعاد في ايام اجازته على الا تقع عيانه عليها .. ويكنى بحرمانها من
الميراث والمعاش .. حفاظا لكرامته ..

وكان هذا يعنى في نظر امي اشد عقاب يمكن ان يزل بها .. وانه
لاهون عندها ان تحرم من بيتها ومنا ومن سمعتها على ان تحرم من
ميراثها .. فلم يكن لها هم سوى جمع المال من اى طريق .. ولو انها
وجدت سوقا لتبيعنا فيها لاعتنا بأجس الامان ..

وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بجسده
الدخول الى غرفة النوم .. وصافى يا لين .. حليب ياقشقة .. والى
كان .. كان ..

وتحول الاسد الى حمل وديع بعد اول قيلة .. وانتهى كل شئ ..
وعادت المياه الى مجاريها ..

كان هذا هو حال أبى المسكين مع أمى .. وحاله معنا ..
وكنا نفتقر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حيلته ..
وأحيانا حينما كان يجمعنا حوله ليحكى لنا القصص .. كنت أرى
عينه تتدلى بالدموع .. وهو ينظر إلينا .. وبضما الى صدره .. وكان

في تلك اللحظات يغير موضوع الحديث .. ويبدأ في اعطائنا درسا في الوطنية .. ويفنى لنا .

يا مصر يا ام الدنيا حيك في القلب سكن ..

ونحن تغنى معه .. وهو يدير وجهه الى الحلف ويمسح دموعه ..
كم أحببت أبى .. كم أحببت ..

وبلغت السادسة عشرة في فبراير وبدأ أبى يلوح بوجوب امتناعي عن الذهاب الى المدرسة وبقائى في البيت .. ولم تمنع والدنى على شرط أن يوافق أبى على زواجى ..

وتقدم لى في هذه السنة ضابط شاب يكبرنى بعشرة سنوات .. يتيم الاب والام له ايراد خسارى غير وظيفته مستقيم لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار وسمعته في عمله نظيفة .. فقبله أبى وجاء به لرؤيتى .. ورأيت شخصاً عادياً ليس فيه شئ يلفت النظر .. أما هو فقد أعجب بى جداً .

وامتدح جمال وجهى وعينى وشعرى الأسود الطويل وفى الصغير وأسنانى المرسوسة .. ويوم اليسنى الدبلة لم يفته ان يبدى اعجابه باناملى وبطريقة عنايتى بأظافرى ..

وكنت سعيدة باطرائه الجمالى .. فهذه أول مرة اسمع فيها انى جميلة جذابة .

وداعتنى الآمال ..

في المستقبل سوف استطع الذهاب الى السيّنا .. وسوف استطع الضحك والغناء بصوت عال على كفى .. وتسريح شعرى في المرأة ووضع الأحمر على شفتى .. والخروج الى الشارع .. والذهاب الى المصيف وتزول البحر .. والسفر .. والسهرة وألف متعة .. ومتعة .. وجلس خطيبى يتحدث مع أخى .. وفهمت من حديثه أنه ينتظر

الترقية .. وأنه ينتظر ان يعاونه والذى كطبيب كبير متصل بالسراى .. وأنه يعلق زواجه على هذا الشرط .

وسقط في نظرى .. وسقطت أنا أيضاً في نظر نفسى ..

ان الجميلة الفاتنة كانت الترقية .. ولم تكن عيونى .. وكأى رجل عادى يبعث عن صفقة .. كان خطيبى أيضاً يبعث عن صفقة .. ويريد التقرب من السلطان عن طريق الزواج بى .. لم يكن يريد التقرب منى ..

وغيضت كطفلة جرحت في أحلامها ولويت بوزى .. وكرهته .. وكرهت الزواج ..

وحدث في ذلك الأسبوع ان جاءت أختى من البلد غضبانة من زوجها وأصرت على عدم العودة .. فهى لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر من هذا .. مع زوج لا تحبه . ولا تطيقه .. زوج حاد المزاج ضيق الصدر في سن أيتها ..

وقامت القيامة في البيت .. بكاء وصراخ وتشنجات من أخسى .. وصراخ أشد وتهديدات من والدى .. واجتماعات مع خالى تعقد وتفرض . وبعد خمسة عشر يوم وافقوا على الطلاق على أنه درس فقط يعطونه لزوجها لكى يتأدب .. وفعلنا طلقنا واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد وأن يستكفها اعترافاً بخلها بالنزول عن المؤخر والنفقة وبأنها ليست حاملاً وكتبت له ما اراد والفته في وجهه ..

وانتهت المشكلة ولكنها ما كادت تنتهى حتى انفجرت قنبلة غيرت نظرنا للأمر كله .. فقد تقدم لأختى بعد طلاقها مباشرة مقالود صديق لزوجها ومن نفس البلد .. شاب جميل من سنهنا .. كان يتردد على البيت بحكم صداقته بزوجها ..

وكانت فضيحة .. لم يسع والذى امامها الا وافق على الزواج

ليطفى على الخبر ماجور..

ونار خطيبي وبدأ يلوح بكلام جارح.. وثرت في وجهه وطالبته
بفسخ الخطبة ولكنه رفض.. لا لأنه يخشى.. ولكن لأن نتيجة
الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد..
وألمحت على فسح الخطوبة ففسخها وشعرت براحة عميقة ليست
بعدها راحة.

وأذكر في تلك الليلة.. وأخي نائمة بجواري.. أنها سألتني في حزن
وهي تدخل في حضني عن رأيي في زواجها وطلاقها وكلام الناس..
فأجبت وأنا أكذب.. أنت معذورة.. لقد تعذبت بما فيه الكفاية مع
رجل لا تحبينه.. ولولا أن الله يعلم بأنك مظلومة.. لما أرسل لك هذا
الرجل لانتفاذك.. والزواج بك..

فتهدت أختي وقالت:

- آه.. كم تعذبت.. ما أرحم الله.. لقد عوضني خيرا بعد كل
هذه السنين التي صيرتها.. فأني أعيد زوجي وأشعر من فرط سعادتي
أنني أحلم.. وأني سأبقى على الحقيقة المرة.. أشعر أن قلبي لن يحتل
هذه السعادة..

أبعد هذا الكلام كنت استطيع البوح لها بما أنا فيه.. ولكني كنت في
الحقيقة أتأم.. وكنت خجلى.. وكأني أنا التي أحلم فضيحتها..
وكنت أريد أن أبكي.. وأنكلم.. وأنسكو أحزاني.. ولكن لمن
أنسكو أحزاني.. لأني؟.. وهي عذوق.. وعارها هي الأخرى على
رأسي.. لأني المسكين ولديه من عذابه ما يكفيه ويكفي العالم؟..

لم يكن هناك مفر..

كان لا بد أن أتهدب وحدي.. وأحمل أتأم هذه العائلة وحدي..
وكانت النتيجة أنني مرضت.. وضعفت.. ونقص وزني في شهور إلى

أربعين كيلو جرام.. وأصبحت عنباً من فرط هزال وجهي واسمعتني
جدا.. وخيفتني..

وكان والدي متفانيا في تلك اللحظة في مهمة طبية بالمتن.. وأمي
سارحة على كفيها تنط كل يوم إلى العزبة ثم تعود سكرانة تغشى في
غرفات البيت بصوت أجش مبتذل..

وأنا نائمة في فراشي.. حرارتي مرتفعة.. ورأسي تكاد تنفجر من
الحمى.. وقلبي يطحنه احساس ذليل يأس..

ويلغني خطاب من أبي في ذلك الوقت يصف لي مدى ذعره من حلم
رأه.. وهو أنني مريضة طريحة الفراش وحول أربعة أطباء يفحصونني..
ثم يرفصون رؤوسهم إلى أبي ويقولون في نفس واحد.. فيش فائدة
فيصرخ أبي مذعورا.. ويصحو من النوم ليجد نفسه جالسا في فراشه
والدموع في عينيه.

ولم يصدق أنه كان يعلم.. فقام لغوره ليكتب إلى يسألني عن صحتي
ويستحلفني أن أرد فوراً ويخط يدي..

وقعلا كتبت له في الحال.. وكنت متأثرة جدا فظلمت أبكي طول
النهار وطول الليل ولم يقمض لي جفن وأنا بين احساس عفيف بالحزن
واحساس عفيف بالسعادة.. بالسعادة لأن أبي يحس بي ويشعر بي إلى
هذه الدرجة.

وفي الصباح فتحت عيني على صوت أبي وقد جاء في أول قطار..
وسمعت لهناته وهو يصعد الدرج وينادي بصوت عالي وبهبة.. ناني..
ناني..

وجريت وفتحت الباب.. فتلقتني في حضنه وظل يقبلني ويبيكي..
وأنا أبكي.. وأضع رأسي الصغير على صدره.. فيهدهدني كفرخ
الحمام.

يا أمي .. يا حبيبي .. يا ملاكي .. يا الهى الرحيم ..
عرفت في تلك اللحظة لماذا لا يطلق أبى أمى على ما يعلمه من أنها
لماذا تشل يده كلها وفهما ليهدم بيته .. لماذا يضعف ويفقد المقدرة
ويصبح كالطفل السليب الأرادة .. لأنه يحب أولاده وبيته .. لأنه
يحبني ..

وغفرت له ضعفه .. بل لقد أحبيت ضعفه .. وعشقت ضعفه .
ألست أنا ضعيفة ؟! أنا ..

ويدأت الأقدار تسج لنا أحزاناً جديدة ..

أنجيت اخق من زوجها الجديد بنتا .. وبعد سنة حملت مرة أخرى ثم
أجهضت .. وبعد الأجهاض بشهور ظهرت عليها علامات سرطان
بالدى رغم انها كانت في أوج شبابها ولم تعد الثلاثين ..

وأجريت لها عملية استئصال للندى .. وقال الأطباء ان العملية لن
تنفع .. وانها جادت متأخرة .. وان السرطان سيعاودها في خلال سنة .

ومضت شهور من الانتظار المفزع .. انتظار الموت ..

وأنا كل يوم أنظر الى وجهها وهي تضحك فيخيل لي أنها جنة
تضحك .. وأدخل في غرفتي وأبكي بحرقه .. فلم يكن في امكاننا أن
نقول لها الحقيقة ..

لقد تميت ان يصيبنى الله بدائها وبأخذنى لا ستريح .. فلم يكن
لدى شئ أعلق به .. أما هي فكان لها حب تعيش من أجله .. ورجل
تعيده .. وأبنة جميلة تعشقها .

كانت الدنيا بين يديها .. وكنت وحدى ..

ولكن الموت لا يختار ضحاياه ..

واقتربت نهايتها .

وكانت آلام العظام تفرى جسدها .. وكانت تصرخ وتنتشب بيدي

هائفة في دُعر ..

لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .. أنى أفضل ان تطعنني
الآلام ولا أموت ..

لا أريد أن أترك زوجي .. حبيبي .. سعادتي .. لا أطيق أن تأخذ
امرأة أخرى مني .

وتمسك بزوجها وتصرخ ..

أحلف لي أنك لن تزوج بعدى .. أحلف أنك ستعيش تذكرني ..
لا أطيق أن تلمس يدك الحنونين امرأة أخرى .. لا أطيق ان تلمس

شفتيك نسخة أخرى غير شفتي .. ان هذا يقتلني الف مرة أكثر من
الموت ..

وزوجها يبكي ويقبل يديها وقدميها ويؤكد لها أنه لن يزوج ..
أبدا .. أبدا .. مدى الحياة .

ثم يخرج الى الصالة وينهار باكياً .. ويقول ..

لم أعد أطيق عذابها .. ان آلامها تقتلني .. أتمنى أن تموت
لستريح .. ولكن كيف تموت .. ان موتها يعنى انتهاء حياتي أنا أيضا ..

يارب .. وكانت في أيامها الأخيرة تهذي باستمرار .. وكانت في حاجة
الى سهر وفريضة مستمر ..

وطلب زوجها منى ومن أمى أن تبقى معها في البيت .. لتتبادل السهر
عليها .. ولكن أمى اعتذرت بكل بلاهة بحجة أنها لا تستطيع ان تترك
البيت والأولاد .. ولأنها ليست في السن التي تسمح لها بالسهر الى
جوار مريضة ..

ومن هي هذه المريضة .. انها بنتها !!

وكان معنى هذا أن أسهر الى جوارها وحدى ..

وأن اسمع كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأهاتها .. آهه .. آهه .. وأن

ألتقى لهاثا وشهقاتها على صدرى .. وان أموت الى جوارها بالحياة ..
وتلطف الله بها فقبض روحها الى جواره .. وأصبحت انا بانيار
عصى .. فأخذنى خال الى الأسكندرية .
وسافرت وأنا كالمنهولة ..

وبذل خالى وزوجته والمائلة كل ما يستطيعون من جهد ليخرجونى
من حزن وصمق وانطوائى .. دون جدوى .. ولم يكن أحد منهم يعلم
مدى ما أعانيه ..

كنت كلما اغمضت عيني رأيت أختى مينة وزوجها يحتفظ بحبتيها فى
المنزل ويأبى أن يدفنها لأنها لا تستطيع فراقه . وتثبت به وهى مينة .

ومرت سنة وذهبتا لرأس البر لنصطاف .
وجاء زوج أختى فى زيارة لمدة ثلاثة أيام ..
ولا حظت خلالها انه بدأ يغير نظرتي لى فبعد أن كان يعاملنى كشقيقة
صغرى بدأ ينظر الى كاسرة ..
ولم أفهم ما يقصده ..

وحينما عدنا الى القاهرة وعلمت العائلة بزيارته .. أخذوا يباركون
لى .. على ايه ١٢ وصحبت صديقات أُمى يباركن لها فى التليفون ..
على .. ايه ..

وأُمى تقول لى أنه شئ طبيعى .. وأنه أحسن زوج لى .. أنا .. ١١١ ؟
أتزوج زوج أختى التى عاشت طول عمرها تعبه واستحلفت بحبائها
وعذابها الا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها .. مستحيل .. مستحيل ..
مستحيل .

انى أموت بلا زواج ولا أتزوجه . مستحيل ..

واجتمعت العائلة حولى .. ليقولوا كلهم فى نفس واحد ..
مستحيل ليه ..

أنت أحق به من الغريبة .. واللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش
وحاتفوق البنت لمن .. البيت الحلوة الصغيرة .. بنت أختك اللى
حتتمرط فى ايد اللى تسوى واللى ما تسواش ..

وهو ماله .. اخلاقه ممتازة .. وفلوسه بالالوف .. وانسانيته ..
وعقله .. وحنانه .. وادى اننى شفىق ازاى كان يعامل اختك ..
وصرخت .. مستحيل .. مستحيل .. انتم بجانين .

ولكنهم احاطوا بى فى حلقة .. وأخذوا يضيقون الخناق حول عنق
وسلاحهم العقول .. والمنطق .. وكلامهم معقول واسوأ ما فيه انه
معقول ..

انه شخص ممتاز فعلا .. وأنا أولى برعاية بنت أختى من الغريبة .
ولكنى لا أشعر نحوه بشئ ..

ومن ادراككم انه لم يكن يعامل أختى هذه المعاملة الا لأنه يحبها ..
وكيف أسلب أختى راحتها وهى فى قبرها وأخذ زوجها ..

مستحيل .. مستحيل ..

مستحيل ليه .. انها حينما تحس فى قبرها ان بنتها .. ودبعتها ذهبت
الى يد أُمينة .. وأن أختها هى التى سوف ترعاها فانها سوف تفرح .
أنت مغفلة ..

مغفلة .. ربما ..

ان أسوأ ما فى كلامهم انه معقول ..

يارب ساعدنى ..

أبى .. أبى حبيبى ..

أبى يقول لى بسذاجة .. تزوجيه .. انك أولى به من الغريب .. انه

انسان طيب .. وبنته سوف تكون بنتك .
أخى يقول لى .. تريئى حتى تعرفى شعورك .. انها ستكون آخر
فرصة لك ..

أمى سافرت الى الأسكندرية لتعود ومعهما البنت .. بنت أخى .
أه من البنت ..

انها حينما رأتى . القت بنفسها على صدرى واحتضنتنى فى حب
وغمرتنى بالقبلات فى كل مكان من وجهى وعنق .. وطلبت ان تنام
معى .

وحيثما أخذتها فى حضنى لم يمسح لى جفن طول الليل . كان كلامها
يفتت كبدى .. ويقلب تفكيرى رأسا على عقب . وجاء هو . بعد أسبوع
وفاتحنى فى موضوع زواجه بى .. وصارحته بكل ما يدور فى رأسى ..
قلت له أنى لست كسقيقتى .. بل أنا على عكسها فى كل شئ .. فى
الطباع والاخلاق والصورة وانى لن استطع ملء الفراغ الذى تركته .
ونئى آخر أهم من كل هذا .. أنى لأحبك كما كانت تحبك هى ..
صحيح احترمك واعزك لأنك شخص مثالى وأحبك كأخ .. ولكنى
لا أشعر بحوك بشعور الزوجة لزوجها ..
فقال لى :

- انى اكفى الان بهذا الحب .. وسوف اترك للزمن ان يجعلك تحبى
كما تحب الزوجة زوجها .. أما عن طباعك واخلاقك .. فاعتقد انى
افهمك أكثر من أى شخص آخر .. وسأعرف كيف أعاملك ..
وأعوضك كل ما فاتك .. أما عن الصورة فصحيح انت مختلفين عنها
كثيرا .. وليس معنى هذا انك وحشة .. ولكن لك جمالك الخاص بك
أما عن الفراغ الذى تركته اختك فانا لم أتقدم الا بعد نطقى فى نفسى
وفى شعورى ..

وقلت له :

- أنا متأكدة انك لم تطلب الزواج منى الا من أجل بنتك . والحالة
مها كانت فهمى أرحم من امرأة غريبة ..

فقال فى نبرة تأكيد :

- انت محططة فى تقديرى .. فأنا أولا وقبل كل شئ أطلبك لانى
معجب بك .. وانت تعلمين انى أعيش مع اخى الأرملة .. وانها تحمنى
وتخدم بنى .. ولا يدفعنى الى الزواج بك حاجتى او حاجة بنى الى
الرعاية وإنما يدفعنى حبنى لك .

وهنا دخلت علينا البنت وقالت فى نبرتها الحلوة :

- مالمكم قاعدين تتوشوشو زى المتجوزين كده ..

بنقولوا ايه .. بابا ؟ .. بتحب طنط زى ما يحبها .. أنا يحبها قوى ما
أعرفش ليه ..

- وأنا كان يحبها يا حبيبى .

- خلاص ما دام بابا يبيعك وانا معنديش ماما .. ليه متكونيش
ماما .. انتى معنديش ولاد .. وانا معنديش ماما .. بيبى أنا بنتك واننى
ماما ..

فاغرورقت عيناى بالدموع .. وتلففتها فى حضنى ..

وقال هو فى صوت حزين :

- ألا يكفينى اسعاد ثلاثة أشخاص احباء وأعزهم المتوفاة لكى
تسمرى بسعادة كبيرة .

فأعلنته موافقتى دون وعى منى .. فقط اشتعلت عليه تغيير السكن
اذ لا يمكن العيش فى نفس الشقة التى عاشت اخى وماتت فيها ..
وهكذا تزوجت الاستاذ عزيز .. زوجى .. وبدأت مأساتى الكبرى .

أسلها أعز ممتلكاتها .. وأطلب المتعة في فراشها الذى مانت فيه ..
ونام هو ..

وظللت أنا صاحبة انقلب على فراش من الشوك واحلق في الظلام
وتسبح المية امامى .. وصوتها يجلجلج فى اذنى .. وهى متشبثة بذراع
زوجها تصرخ .

- أحلف لى انك لن تتزوج بىدى يا عزيز . احلف انك ستعيش
تذكرنى .. لن أطيق أن تلمس يديك المونتين امرأة اخرى .. ولا أن
تلمس شفتاك شفتين غير شفتى .. إن هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من
الموت .

وأنا أصرخ وأبكي الى جوارها واولول .. يا حبيبى يا أختى ..
سوف تعيشين لزوجك ولبنتك .. لن تموتى أبدا سوف أموت أنا .
وانتبه لأجدى على الفراش .. انا يلحمى ودمى والى جوارى زوجى
عزيز نفسه .. وجسدى ما زال يبلله العار من آناوه .

ويصحو زوجى لينهب الى الشغل ثم يعود قائلاً انه تعب من البحث
عن شقة اخرى بإيجار قديم ويخلو رجل .. ويقترح على تغيير نظام
الشقة وفتح الحائط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد لتغيير المنظر
وتحويل الغرفتين الى غرفة جميلة واسعة .. الى أن نبني فيلا ..

- وهل سنتبنى فيلا ؟

فيقول .. نعم .. لقد استتريت الأرض فعلاً .. وبدأت أتفق على
رسمها وبنائها .. ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساط بنائها اذا انتقلت
الى شقة بإيجار جديد لأنى لن أستطيع الدفع فى الشقة الجديدة
والفيلا فى وقت واحد .

- وهل سنتبنى من بناء الفيلا قريباً ..

- فى ظرف شهور قليلة يا حبيبى .. ان الحكاية لن تحتاج أكثر من

- ٦ -

قلت لعزيز انى لا أستطيع الدخول فى شقة اخى المرحومة وعلى
عفشها .. فوعدتنى انه سوف ينتقل الى شقة أخرى .. وسوف يشتري
لى عفشاً جديداً .. ويعطى العفش القديم لأمى .. وأطلب منى الاسراع
فى اعداد ملابسى الجديدة .. وبدأنا نتشاور فى الأثاث الذى سنجده .

وبعد عقد القران خرجنا نتمشى بالليل .. وعند عودتنا فوجئت به
يشدى الى غرفة النوم ويطلقها بالمفتاح .. ويطلب منى حقه الشرعى .
وفوجئت بهذا التصرف من جانبه .. وخصوصاً بعد أن شرحت له
حالتي وحاجتي لتغيير الشقة والجو القديم لتسريح أعصابى .

ولم أكن قد تهأت بعد لهذه الرغبة ..

كنت ما زلت انظر اليه كأخ احترمه وأعزه ..

وكانت مفاجأة ارتبكت لها تماماً .

وتم اتصالنا فى نفس غرفة النوم التى كانت تنام فيها المية .. وعلى
فراشها

ولم أشعر بلذة ..

لا تثنى سوى احساسى بالامتزاز منه وهو يجتمع نيايه .. وامتزاز من
نفسى .. وأنا أنام وأمتثل لكل ما يطلبه .. وقضول ودهشة .. واحساس
بالبلل .. وبالقرف .. ثم احساس مرير بالذنب فى حق أختى وأنا

وأبحث فيه عن الرجل الممتاز .. والانسان اللطيف الذى تعودت ان
احترمه فلا أجده .

إن المعاملة السرية والمطف الرقيق المتبادل في لحظة الفرائس ..
وحرص كل واحد على شعور الآخر .. وتجارب النفوس والأرواح ..
هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيق والمحبة بين زوجين .. أما المظهر
اللطيف في التصارع وفي الترام وعلى البلاج فإنه لا يكتفى ليجمعل من
الرجل زوجا .

إن الرجال يتغيرون كثيرا حينما يخلعون ملابسهم الرسمية .
ونحن نكذب على أنفسنا حينما نقول اننا سوف نحب أزواجنا بمرور
الوقت ..

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان .
لم يكن زوجي ذلك الرجل النبيل الجنتلمان الذى تعودت ان احترمه
وحيثما خلع ملابسه .. كان مجرد حيوان .
ولم يحدث شئ بمرور الوقت .. لاحب .. ولا حتى تصرد .. وإنما
ازدادت كراهيتي .. وازداد نفوري .

وكت أشعر بالضيق كلما أقترب مني ليأخذ ما يسميه حقه الشرعى
وكت أحيانا أضغط على نفسي لأرضيه .. وأحيانا أعلنه بأنى غير
راغبة وكان حينئذ يثور .. ويقول انه بشر وبدنه له عليه حاجات ..
فن أين يقضى هذه الحاجات .. فأثور أنا أيضا وأصرخ بأنى بشر ..
وبدنى له على حق أنا الأخرى .. ولا أستطيع أن أرغمه على طعام
لا يحبه .

وكان يحدث دائما إذا ضغطت على نفسي وامتلئت لمطلبه .. أن أتور
بعد هذا لأتفه الأسباب .. وأبكي .. وأصرخ .

وإذا حدث العكس وضغط هو على نفسه .. وامتنع من أجلى .. فإنه

شهور قليلة تنصير فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهى البناء ...
وهكذا صيرنا ..

وبقيتنا في تلك الغرفة الملعونة .. لم يتجدد شئ سوى عذابى الذى بدأ
يوم بعد يوم ليصبح عذابا رهيبا ..

يصبح الصبح فأقوم لأساعد البنت على الذهاب الى المدرسة ..
وأعد لزوجى فطوره ..

ويذهب الى عمله وأبدأ أنا في الإشراف على البيت .. ويشملكنى
الشعور بأنى لست في بيتي .. وإنما أنا زائرة غريبة .. لصة .. كل
حجرة تذكرنى بأختي .. كل مقعد .. كل قطعة أثاث ..

إنه لم يتزوجنى أنا .. إنه لم يتزوجنى أنا .. إنه تزوجنى لأنى من
رائحة أختى التى يحبها . تزوجنى ليتملل بي حتى يبق في نفس البيت ..
وفي نفس الغرفة .. ونفس الفراش الذى يحبه ..

ما أنا إلا نسج .. أما الحقيقة التى تغلوه وتغلق قلبه وتغلق البيت وتغلق
أنا أيضا فهى جسم الميتة وأنفاسها ..

أنا لصة سرت زوجها منها .. بل هى اللصة التى سرت نفسى
منى .. سرت حقيقتي .. ووضعت في مكانها صورتها ورائحتها .

وفي كل يوم أبعد عنه أكثر .. وأبتعد عن نفسى أكثر وأكثر ..
ويتسع المسرح في داخل .. ويتفصل سلوكي الظاهري الذى أتكلفه
بحكم الواجب .. عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخل بالنفوس ..

وهو لا يشعر بالعذاب الذى أعانيه .. وإنما يثور لبرودى .. ثم يكف
عن الاهتمام بي وبرغباتي .. ويأخذ في معاملى كئىئ اشتره بالمال ..
يأخذ منه حقه الشرعى متى يشاء بالطريقة التى تعجبه .. لا يعبا
باشمئزى .

ويتحول في نظرى الى حيوان ..

كان يثور وينفجر بعدها لأخفه سبب .

وكنت حينئذ وحيثما تبلغ ثورته أشدها .. أشعر براحة شريرة في داخلي .. لعلها أخفى الميتة هي التي كانت تبهج في داخل بعذابه .. ولكن كنت أشعر شعورا آخر واعيا بالطف على .. والحزن من أجله . وهكذا كنت أترواح بين احساسات متناقضة .

وبدا يلجأ الى أدوية وأساليب طبية لطيلة في فترة اتصاله بي . وكنت في تلك الحالات أشعر بلذة .. ولكن اللذة كان يعقبها قه وصداع وآلام نفسية حادة .. وشعور بالفور والاضطرار من جسمي لأنه يتلذذ وحده كالمحيوان دون أن تتلذذ وروحي وتنعم نفسي .. ودون أن أشعر برضى القلب .

وكنت أحتقر جسمي .. وأعاقبه وأنار منه .. وأنظر اليه بائسرازا كأنه جسد عاهرة باعتته في سبيل قوتها ومصروف يدها .

كانت اللذة تنتهي دائما بنكد لي ولزوجي ..

وأدرك انه لا فائدة .. فأسلم نفسه لياس مرير ..

وبدا يعاملني كأني وسيلة يؤدي بها وظائفه بدون شعور .. بدون نهيد .. بدون مقدمات .

وتحولت ساعات الليل الى ساعات عذاب أليم .

وفي بعض الأحيان كنت أشعر بانقباض في صدري بمجرد سماع أذان العصر .. ودخول الليل .. من غوقي .. ومن احتمال طلبة شيئا .. وفي أحيان أخرى كنت أنهار وأبكي .. وألطم خدي .. وأشد شمري . وكثرت رؤيتي لأخوتي في الأحلام .

وكنت أراها في مرة تفصل نياح زوجي .. ومرة غيط له جواربه أو تطعم بنتها وتعد لها الشاي واللبن .. وتلبسها مربية المدرسة .

كانت تروح ونحيي حولي .. وفي عقل .. وفي خيالي .. وتعيش حياتها

البيتية العادية .. التي هي حياتي .. وأنا أنظر إليها .. والى نفسي كأني غريبة تماما .

وبدأت أغرق ألامي في القراءة .. كنت أقرأ لزنابق . وأطالع مارسيل بروست .. وبعض كتب بلزاك قرأتها مرتين وثلاثة .. وأحيانا كنت أقرأ المبراند القديمة .. وأحيانا كنت أكتب ..

وأحيانا كنت أتلهي بالزحف على البياض .. وكنت أحب المقطوعات الحزينة اليائسة مثل .

ولكني كنت أحس في لمحات أن كل هذا كلام فارغ .. وكنت أمزق الأوراق التي كتبها .. وأمزق الكتب .. وأمزق شمري .. وأبكي في حرقة وصمت .

كل هذا كلام فارغ ..

إن أنوثة المرأة هي كل وجودها .. وحيثما تفقد المرأة جسمها وروحها فلا شيء يعوضها .. لا شيء .. لا شيء أبدا .

وفي تلك الأحيان كنت أأخذ الأقراص المنومة .. لأنام .. وأقتل سوس القلق واليأس الذي يأكلني .

كنت أئسد الخلاص من نفسي بأني تمن ..



وأخيرا وصلت غرفة النوم الجديدة .. وجاءت معها أمي .. وغيرت نظام البيت .. وبعد يومين تشاجرتنا وسافرت غضبانية لأنها تريد أخذ بعض مفارش أخفى بحجة أنها أصبحت زائدة عن حاجتي .. ورفضت بشدة .. وقد أحسست مدى الفارق بيننا .. هي كل تفكيرها محصور في أخذ مفرشين أو ثلاثة .. وأنا أعيش أبكي وأصرخ وأحرم على نفسي حياة وسعادة هي ملكي وحق ليبرد أن أخفي اشتيتها يوما ما ..

وأدركتني رحمة الله وظهرت على بواذر الحمل .. واستترحت من اتصالى يزوجى بضعة شهور أنجيت بعدها طفلا جميلا .. شعرت بالفرحة لأول مرة .. حينما نظرت في وجهه .

وسافرنا الى بور سعيد .. وفتح زوجى مكتباً للمقاولات . وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة ، وكأنما التأمت جراحها ولكنه النشام من السطح فقط .. لأنها كانت تزداد عمقا يوما بعد يوم .. ومرت شهور .. وانتقلنا الى شقة جديدة .. ولاحظت ان حال زوجى ساءت .. وأن أعصابه أصبحت لا تحتمل أى شئ .. وأنه أصبح يثور في وجهى بلا سبب ويظل يصرخ ويشتم ثم يهمل في وجهى .. وتلمع عيناه ببريق مخيف فيه مزيج من الكراهية والبأس والجنون .. وكان يحيل لى ساعتها أنه سيقف فاقد للنطق ..

وكان السبب هو سوء حالته المالية .. وتوقف أعمال المكتب بسبب الحالة الاقتصادية .

وكنت أحاول بنسئ السبل أن أطيب خاطره بدون نتيجة .. إذا هونت عليه المشكلة أتهنى بأنى لا أقدر الموقف .. وأنى أنانية لا يهمنى الا انفسى .. وإذا حاولت التفكير معه .. نهىنى وقال : أنى طفلة فى تفكيرى .. وأنى لا أفهم شيئا .

وجاءت الست والولدة .. لا لزورنى ولكن لتقبض حوالى الحسمانة جنبه تعويضاً عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب اهمال البلدية .. والحقيقة أن هذه الكباين كانت قد انسقرت من نقسود والذى دون ان يعلم .

وقلت لها إنى معذورة .. وفى حاجة لقرشين .. وأن حالة البيت تعبانة .. وان زوجى عصي باستمرار بسبب توقف الأعمال فى مكتبه .. فوضعت يدها فى محفظتها .. وأعطتني ثلاثة جنيهات .. ولم أعرف

ماذا أقول .. وبماذا أشتتها .. وألقت فى وجهها النقود .

وقعدت أصرخ وأبكي .. وزوجى يصرخ فى وجهى .. دى مش عيشة .. ايه القرف ده .. أنا ذنبى أيه أستحمل النكد المستمر ده .. أنتى أنعافتنى مع أمك .. تقوم هى تسافر مبسوطه .. وأنا الى أشرب المر هنا ..

وأبكي فيزداد صراخه .

وبدأت أفكر جدباً فى وضع حد لهذا العذاب .

كان الطلاق غير مجد .. فقد فات الأوان وتحولت الى عبوز صفراء كالحة فى سن الثلاثين .. امرأة ذالعة تائهة لا تصلح لشيئ .

ولم تكن لى حياة أخرى أحيها .. أو بيت آخر الجأ اليه .. أمى تذكرنى وأنا أكرهها .. وسوف تطردنى من بيتها إذا لجأت اليها .

وإذا طلقنى زوجى فلن يكون أمامى حل سوى الانتحار .

كانت حياتى كلها بأس فى بأس الفرج الوحيد فيها هو الخضوع والقبول والاستسلام ..

وبدأت أقتل فى نفسى كل احساس .. وأعيش جسدا بلا روح .. انفرك فى فراغ مفرع .. وملل قاتل .. وأنام فألثت فى فرائى بلا حركة لا أنا بالناقة أو بالصاحبة .. وإنا راقدة فى خول نشتع .. أقوم من رقادى لأرقد من جديد ..

وبدأ يشتنى فلا أزد .. ويسبنى بألفاظ بذينة فلا أجابوه . ويتور فى وجهى ولا أنكلم .

وإذا به يصرخ فجأة :

إننى ساكنه كده ليه .. عاوزة نفرسنى .. حد مصلطك عليه .. عاوزانى أعين .. عاوزانى أطلقك وأخلص .. طيب أنت طالق .. ووقف يطلب والدى فى التليفون ويبلغه أنى طالق .

انى أخسر كل شئ .. حتى نفسى .. وليس لى الا نفس واحدة
أعيشها ..
وانتهت المذكرات .

وعدت أسلك حزمة الأوراق .. كأنها حزمة من الأعصاب لا من
الأوراق ..
هذه هى نانى .. وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف
عينها ..
وضعتها بجانبى فى رقة كأنى أوسد جريحا .. وعادت كل كلمة فيها ترن
فى أذنى .. كل شخص يطاردنى .. ويتمثل لخيالى .. وكأنى أعرفه من
زمن بعيد .. وكأنى عشت معه ..

كلهم تجمعوا حولى .. الأب الحنون الذى يتعذب فى صمت .. والأم
القاسية .. والأخت التى ماتت وبعت .. بعت فى دمي أنا أيضا ..
والزوج ونانى ..
لم يعودوا يتحركون وحدهم .. أصبحت انحرك معهم .. وأنشاركهم
مصيرهم ..

وخلف الظروف التى تباعد بيننا وجدت المحيط الذى يربطنا نحن
الاثنتين انا وهى ..

كل منا ضاعت حياته .. وهو يبحث عنها ..

ضاعت نفسه .. وهو لا يجدها ..

كل كلمة قرأتها ونقت هذا الجبل الخفى .. وعقدت بيننا ذلك القران
الحرام الذى لا مفر منه ..

ونام ليلتها فى حجرة أخرى .. وبث أنا أفكر فى مصيرى ..
لا شئ أصبح يجدى .. خضوعى أصبح يثيره .. وهياجى يثيره ..
وها أنا مطلقة .. بلا أمل .. بلا بيت .. بلا صدر حنون الجأ اليه ..
واندفعت الى موسى حلاقة وجدته أمامى .. وقطعت شريان زراعى
وأغمى على .. وكان آخر ما سمعته صوت الحسامة وهى تصرخ .. دم .. دم .. دم ..

وحينا أفقت كان زوجى راكبا الى جوارى يقبل يدى .. وقدمى ..
ويبكي ويتوسل .. ويقول أنه سيفعل المستحيل لأسعدى .. وأنه لن
يتركنى أبدا معها حدث ..

وأنفخونى من الموت لأموت بطريقة أخرى .. ببطء .. فى البيت
الواسع .. والحجرات التى لا أعرفها .. والرجل الغريب الذى يضحى
كل ليلة على أنه زوجى ..

والملل .. والفراغ .. والحياة التى بلا معنى ..

وكل يوم مثل الآخر ..

وأنا أقرأ .. وأكتب .. ثم أفسر انه لا فائدة من أى شئ .. فأخذ
الحبيب النومة لأنام ..

ولا أحد يشعر بى ..

آه يا رب ..

ماذا فعلت لأتخذ ..

وما هو الأمل الذى أتعمل من أجله كل هذا العذاب ..

أن الناس يضحون بأنفسهم من أجل شئ .. وأنا .. من أجل أى

شئ أضحي ؟

انها لا تعرفنى .. ولكنها مع هذا قد سلمتني مفاتيح عالمها الخاص
لأدخل فيه .

ولعلها عرفتني بما فيه الكفاية حيناً نظرت في عيني فوجدت نفس
العالم الذى تسكنه .. وشعرت بأواصر الضياع التى تربطنا دون أن
نتكلم .
نائى ..

اشعر بها قريبة منى .. اشعر بها حولى .. فى داخل .. الى
جوارى .. احبها .. بنفس اليأس الذى تكره به زوجها .
نائى .

ولم استطع ان اصبر ..
ولم اعرف ماذا افعل بالضبط .. وانما وجدت نفسى ادير قرص
التليفون على رقبها .

- نائى .. اريد ان اراك فى الحال .
وكان صوتك يترجف من العاطفة .
ولبت صامتة بهمة على الطرف الاخر من التليفون .
وسمعت صوت هذاتها .. وصوت أفكارها .. وصوت قلقها .. ثم
اجابت فى استسلام .. وبلا وعى .. فى بأس .. كأنها امرأة تمنى فى
نومها ..
- طيب ..

كانت تجلس الى جوارى فى العربة .. وأنا اسير ببطء فى طريق خال
على أطراف القاهرة .. وكانت تقول لى :
- هل قرأت الاوراق كلها ؟

- وعنت فيها .. كلمة .. كلمة .

- وهل تجد ان لى خلا .

- انا لا اجد لك ولا لنفسى خلا .

والفتحت الى فى دهشة .

- وما دخلك انت ؟

- وما الذى جعلك تلقين بين يدى هذه الاوراق على خطورة
ما فيها ؟

- لا ادرى .. ولكنى كنت اشعر دائماً انك لست غريباً عني .. كنت
اشعر انك وحيد تماماً مثل .

وسكنت لحظة ثم اردفت .

- أليس هذا غريباً .. ان يشعر رجل بالوحدة .. ان الدنيا كلها
دنيا الرجل .. انكم تستطيعون ان تفعلوا كل شيء .

- وما جدوى ان نفعل اى شيء .. اننا نريد ما تهواه انفسنا ..

- وما الذى تهواه نفسك .

- اريد ان اعيش .. اريد ان احب وأنزوج وأنجب ولدا .

- ألم تشعر الى الآن انك قد تزوجت وأنجبت ولدا .

- انى اشغل وظيفة زوج وأب . ولكنى لست متزوجاً . ولا اياً .

- ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم احياناً يا رجال .. تستطيعون
الطلاق والزواج مرة .. وأخرى .

- ليست لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا .. انا اضعف
من ان اغير حياتى .. وأقوى من ان أقبلها .

- انك تتكلم مثلى .. انت الرجل .. من يصدق هذا ؟

وسكنت لحظة ثم قالت :

- ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة .. لم يزوجك أحد
عنة ..

- لم أتزوج عنة .. ولكني تزوجت خلسة دون أن أدري ..

- وما ذنب زوجتك .. وما ذنب الولد الصغير ..

- ليس لأحد ما ذنب .. اني لا اشكو احدا ..

- ها انا اليك .. وأنا غارقة في الذنب حتى اذني .. ماذا اقول ماذا

افعل .. ما الحل ..

- الحل هو ان تعلم .. انا شخصا يبحث عن حلم ائسغل به وأتوه

فيه .. ولكني متيقظ .. متيقظ دائما .. وهذه اليقظة تعذبني ..

- ولكنك رجل .. أليس كذلك .. والرجل يستطيع ان يفرق همومه

في عمله ..

- ان عمل مثل زوجتي .. غريب عني .. لا احبه .. انا املاً به

وقتي فقط .. ولكني اريد ان املاً نفسي .. ان الفراغ الكبير هنا ..

داخلي .. اشعر اني عاطل تماما .. اشعر بالملل يقتلني ..

- أنك تعذب نفسك بدون داع ..

- أريد ان اشعر بالهياس .. اريد ان اتحمس .. اريد ان اتحمس

لشيء ولو كان هذا الشيء ارتكاب جريمة .. اني احياناً احسد الجرم لانه

ارتكب جريمته في غل .. انا اريد ان اشعر بالقل نحو اى شيء ..

- ألم تحب .. ألم تنهر بالحب مرة في حياتك ..

- احياناً أقتع نفسي انني احب هذه اوتلك .. ولكني لا استطيع ان

استمر في الكذب على نفسي طويلاً ..

- لا شك انها تكون مغامرات مسلية ..

- انها تكون مسلية في البداية .. لكنها تكون قاتلة في آخرها .. حيناً

اشعر اني قد فقدت القدرة على السعادة الى الأبد ..

- انك تبالغ .. لا شك انك تبالغ كثيراً .. ان الدنيا فيها لحظات
سعيدة بالرغم من كل هذا .. اني احياناً اجد السعادة في اشياء صغيرة
جداً .. في نظرة من عين ولدى ..

كانت تحاول ان تسرى عني .. وكان يبدو على وجهها انها تنسمر

بالراحة .. وكنت اشعر بالراحة لأنني وجدت انساناً يأمن معه .. وأمل

معه .. وأسخط على الحياة معه ..

أكان حياً ..

أكانت اناية منا نحن الاثنين .. كل واحد يحيد نفسه في الآخر ..

يحيد مصداق حياته ماثلاً أمام عيني .. لا أدري ..

كل ما اعرفه اني كنت اريد ان أتكلم .. وأنتكلم ..

لم أكن اريد ان أكف عن الكلام ..

وكنت اشعر ان الوقت ضيق .. وأن ما أريد ان اقوله كثير .. كثير

جداً ..

ولم افق من الحصى التي كنت فيها الا حيناً ينهي الى ان الوقت

متأخر وأتأ يجب أن تعود الى البيت ..

ولكني ما كنت اعود وأستقر وحدي في غرفتي حتى شعرت بحاجة

تنديدة الى ان اكلتها .. وما لبثت ان رفعت الساعة في تردد ..

كانت وحدها ..

وقالت لي انها كانت على وشك ان تطلبني ..

نشرت بسعادة لا توصف .. وقلت لها في اسف ..

- انا اشعر بخجل شديد .. لأنني قضيت كل الوقت معك .. وأنا

اتحدث عن نفسي .. كانت اناية مني لم اكشفها الا حيناً عدت الى

البيت .. اغتفري لي سوء أخلاق ..

- انك دائماً تحاول ان تحمل نفسك ذنباً .. لماذا تضطهد نفسك ..

- انا لا اضطهد نفسى . ولكنى لا اريد ان أكون ها بضاف الى هومك .. لا احب ان اكون طفلا كثير الصراخ بضاف الى اطفالك فليدك ما يكتيك .

- انت لست طفلا .. انت عجوز جدا .. بخيل الى انك ولدت عجوزا كهلا .. اننى انسك فى انك عرفت الطفولة يوما ما .. ان الطريقة التى تمنى بها .. والطريقة التى تنظر بها .. هى طريقة رجل كهل جرب كل شئ .. وانتهى من كل شئ .. ويس من كل شئ ..

- هذا صحيح .. انا اشعر احيانا أنى عجوز جدا .
- اترك نفسك على سجيئها .. لا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير .
دعنى أكون طبيبك النفسية ..

- حاضر يادكتورة .. وماذا عندك من تعليقات اخرى .
- حذار من المغامرات المسلية .. فان قلبك المجوز لم يعد يحتملها .
- حاضر .

- وابحث لنفسك عن عمل تحبه .. عمل مضى مرهق لتشغل نفسك به طول النهار وتعود متعبا لتنام .
- لقد وجدت هذا العمل من الآن .

- ماهو ..
- انت .. انت ستكونين على المضنى الذى احبه .. وأشغل نفسى به طول الحياة .

- وسكنت لحظة .. ولم تحبب .. وسمعت صوت لهناتها .. ثم قالت باضطراب :

- لقد اخترت عملا يائسا .. خاسرا .. لقد اخترت مما تتعاطاه ولم تغتر دواء .. انت تريد الموت لا الحياة .

- لقد فقدت القدرة على ان اعيش كما اشتئى .. دعنى أمت كما اشتئى .

- انا احمل من الذنوب ما يكفينى .. لا اريد ان احمل ذنبك انت ايضا .. لقد حطمت حياتى .. ولا اريد ان احطم حياتك معى .. انت اغلى من ان اختار لك هذا المصير .. انا اريد لك السعادة .

- انت سعادى .. انا احبك .. احبك ياناقى .
وسكنت .. هذه المرة سكنت طويلا .. وسمعتها تبكى بحرقه .

كنت أقف أمام الحوض .. رأسى تحت الحنفية .. والماء ينزل على شعري .. وعيناي ما زالتا منقلبتين بالنوم ..
ومن خلقي كانت أمانة تحمل الفسوة .. وكنت اسمعها تتكلم ..
وصوتها بحوح من البكاء طيلة الليلة الماضية .. ولكنه ثابت .. جاد ..
فيه نبرة شديدة لم أتعوَّدها :
كانت تكلمني عن اطيائي في الصعيد .. وعن خطاب جاء من عند الحولى .. يطلب نقودا للزراعة .. وكانت تقول ان والدى كان يذهب بنفسه .. ويباشر العمل .. ويفتش على ارضه وزراعته .. وأنى أهملت كل شيء .. وأن الفلاحون يسرفوني .. وأنى سوف افقد املاكى وتروى اذا لم افتح عيني جيدا .. وكانت تتكلم بشدة .
- لا بد ان تسافر للصعيد .. وتباشر ارضك بنفسك .. ان أباك لم يجمع هذه الارض بسهولة .. لقد ضيع فيها عمره ..
وأحسست بالحجل من نبراتها .
وأحسست بالضيق لأنها ذكرتني بالمسؤوليات .
وأخفيت وجهي في الفوسطة ورحت أحك رأسى عدة مرات .. وأنا ما زلت امضغ ذلك الضيق الذى استولى على .
وذهبت الى مكتبي .. ورحت أقض الخطابات ..

كان لا بد من السفر الى الصعيد .. ومباشرة الزراعة فعلا .. فلا احد هناك سوى الحولى .. وهو يفعل كل شيء على هواه .. يزرع ويجمع ويحصد ويبيع ويشترى .. ويكتب ما يشاء من مصاريف وإيرادات .. ويأخذ ما يحلو له ويدفع ما يحلو له ..
كان من الواجب عمل شيء .

وضايقتنى كلمة الواجب .
وحينما بدأت أعد الحقايب للسفر أحسست ان ارضى هي التى تملكنى .. ولست انا الذى املكها ..
هى التى نجتم على أكتافى .. وتركبى .. وتسوقنى الى حيث لا اريد .. لان الواجب كذا .. وكذا ..
أف من الواجب .

الصعيد ؟ !

مالى انا ومال الصعيد !!
انا اريد البقاء بالقاهرة .. الى جوار الدفء الجديد الذى اخذ ينبعث حولى ..

في الشارع الذى اخضرت اشجاره فجأة وأورقت وأزهرت .
أمام الشباك الذى تنادينى منه الشمس .
والتليفون الذى يهمس فى أذنى بكلمة الحب ..
ولكن الواجب .. الواجب .. وشعور بالحجل يلاقى فأتصاغر فى نظرى نفسى الى مجرد طفل يبدد الثروة التى جمعها ابوه .
وأكره نفسى وأكره تروى .. وأتقى التخلص من الارض التى تقيدى ..

ان ابى ما زال يحكى ..
ان الفدايين الملقاة على أطراف سوهاج .. هى روحه .. هى

رغبته .. هي كلمة الواجب التي كان يطاردني بها وأنا صغير .



وصفر القطار طويلا . وألقيت بنفسى في عربة النوم ..
وأحسست بهذنى يصفو وروحى تهدأ .. وذابت الدوشة التي كانت
تأخذ بتلابيبي كما تذوب الرغوة التي تمكر وجه الفنجان .. وبدأ ذلك
النمى الغامض الذى يعبرنى يطفو شيئا فشيئا من أعماقي .
ها أنذا في النهاية ملئ في عربة تحسرى من بلد الى بلد . من مكان
غريب الى مكان غريب .. لا شيء يشعرنى بالألفة سوى إحساس في
داخل أطويه عليها .. على خيالها .. على اسمها .
اسمها يشعرنى بالألفة .. بأنى مع نفسى ..
وتذكرت كلماتها وهي تقول لى :

- انت تعذب نفسك بدون داع .. انت تبالغ .. تبالغ كثيرا .. ان
الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا . انى احيانا اجد السعادة
في اشياء صغيرة جدا . في نظرة من عيني ولدى .. أنك عجوز جدا ..
يجيل الى انك ولدت عجوزا كهلا .. ان الطريقة التي تمس بها والطريقة
التي تنظر بها .. هي طريقة رجل كهول جرب كل شيء وانتهى من كل
شيء . ويس من كل شيء .. لماذا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير ..
وصوتها الخنوق وهي تهمس :

- انت اغلى من ان اختار لك هذا المصير .. انا اريد لك
السعادة .. لقد حطمت حياتى ولا اريد ان احطم حياتك معنى .. انا
احمل من الذنوب ما يكفينى .. ولا اريد ان احمل ذنبك انت ايضا .
بل احمل ذنبي انا ايضا .. وحطمت حياتى .
انا اريد ان اشعر بالولاء لأشئ ولو لدمارى .

اريد ان اعثر على رغبتي الضالة .. ونفسى المفقودة .. فيك انت .
نانى .. نانى .

وظل اسمها في أذنى .. طول الطريق والمجلات تجلجل تحت الوسادة
حيث اضع رأسى .. والعربة تهتز واللمبة الكهربائية في السقف ترتعش
ويحير نورها ثم يتألق .. ثم هدأت سرعة القطار .. وسمعت صوت
الغراميل .. ثم توقف القطار تماما .

ولطنت انها محطة .. وفتحت النافذة ولكنى لم اجد محطة .. ورأيت
القطار يقف في العراء وسط الحقول .. والدنيا ليل .. والظلمة حالكة
ولا صوت هناك سوى صوتنا ونحن نطل من النوافذ وتكلم .. يقاطعنا
بين حين وآخر صوت ذئب يعوى في الحقول .
وقال الكسارى ان هناك عطلا في الخط وأن القطار سيتوقف نصف
ساعة .

ودخلت عربتى ولبثت في قرائى ونظرت في نور الللمبة الذى خبا تماما
ونقلت أجنافى .. وثبت ..

لم أتيقظ الا والكسارى يندى الباب بشدة ويصيح : سهاج .
وقت الى حقيبتى أسويا .. ولبست ثيابى وفتحت الباب ونزلت
مسرعا .



سلامات .. والله سلامات .. كيف الحال في مصر .. طيبون ..
حلت البركة .
ده الصعيد تورت .
الف حمد الله على السلامة .
روح يا واد لعملك بشاى عيط عليه .. جبول له ان البيه وصل من
مصر .. والله سلامات .. والله مرجبا .. مشتاقين .

الاخبارية وصلتنا ليلة البارحة . جينا لتونا في الحلزونة (الأتوبيس)
ومن الصبح واحنا واجفين عاد .. كل ما بيجي جطر نحول اهو وصل
ونظل ما نلاجيش حد .

ان شاء الله تكون ميسوط .

كان المتحدث هو سركيس افندى .. الكاتب .. والحولى الذى يدير
زراعتنا .. وكان يهب واقفا كل دقيقة ويشد على يدى وهزها فى عتف
وهتف :

ان شاء الله تكون ميسوط ..

وأنا فى كل مرة أهب واقفا مثله .. وأشد على يده .. وأمرى لله .
وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالح البشرة .. أنسيب الشعر ..
يشبه الجرادة .. عيناه ضيقتان حراوان غائرتان .. وهو لا يكف عن
وضع اصابعه فيها بين لحظة وأخرى ويفركها بشدة .

وركننا عربة بالأجرة اخذتنا الى الارض .

واستقبلنا الخفراف باطلاق النار فى الهواء .

وتجمع الفلاحون حولنا .. وكادت يدي تنخلع من كثرة المرحاب
والسلامات .

وكان الجو صحو والسماء صافية .. ولكنى كنت اشعر بانقباض ..
كانت الوجوه التى تبسم حولى هضمية كالملة غبراء .. وكانت ابتسامتها
نشابة .. وكان فيها شيء ثقيل .. مثل الثراب الذى فى الجو ..
والجفاف والسخونة والهواء الراكد .

ودخلنا الاستراحة .. وكان الخفراف ما زالوا يطلقون النار فى الهواء
والهام يطير فى فزع من أبراجه ويعلق فوق رؤوسنا .

وكان سركيس افندى ما زال يثرثر ويتكلم كلاما كثيرا .. يقطعه بين
حين وآخر هاتفا ..

انشاء الله تكون ميسوط ..

وجلست ادخن وفتحت الدفتر أمامى .. وجرت عينى على السطور .

١٢ نفر لمزيق القدان قح بواقع ١٢ قرش يومية للنفر .. المجموع
١٤٤ قرش ..

٦ أنفار لسقية القدان بواقع ١٢ قرش للنفر .. المجموع ٧٢ قرش .

٣ أكياس سماد للقدان بواقع الكيس ٥ جنيه .. المجموع ١٥ جنيه .
احتياجات الماكينة عن اربع سقيات للقدان ٤ جنيه .

أجرة مشال المحصول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشا .

اموال مقررة ..

٢٥٠ قرش رسوم بلدية .

١١٠ قرش ضريبة جراد .

ومررت على الارقام بعينى عدة مرات .. دون ان افهم شيئا .

وخرج سركيس افندى الى الحقل ليحضر فرسا اركبه .. وبقيت
وحدى مع عوضين الفلاح الذى يفرك عينيه .

سألته : لماذا يفرك عينيه هكذا فقال انه ذهب الى الدير البارحة
وأخذ ترابا من كنيسة العذرة وضعه فى عينيه .. ثم ايشم وأردف :

- دى الحمد لله كثير .. دى كانت وائمة البارحة زى عين الجمل ..
قدس ابونا هو الى طيبها ..

ولم اجد كلاما ارد به على الرجل .. وعدت اقرأ الحسابات ..

١٠ أنفار لرمى الكياوى بواقع ١٢ قرشا يومية للنفر .. المجموع ١٢٠
قرش للقدان .

نصف أردب قح تقاوى يبلغ ٣ جنيه ..

وتحتج عوضين .. وفرك عينيه وسعل .. وهمهم ..

- طيبون .. دى الصعيد نورت .

وسكت قليلا ثم اردف :

- انا لى مصلحة عندك يا سعادة اليك ربنا يخليك .

- خير .. يا عوضين .

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت اليه ..

- والله بدى كام فدان آآجرهم منك السنة دى عشان الزرعة الشنوية .

- انت مش بتشتغل عندنا ..

- لا والله . انا مأجر كام فدان جاركم فى حوضى احمد بك .. وبالى ازرع كام فدان عندكم السنة بالايجار .

- نأجر لك يا عوضين .. اما ييجي سرئيس افندى .. تشوف .

- ربنا يخليك يا سيدنا اليك .

وخطر لى ان اسأله عن الزراعة .

- والزراعة حالها كويس السنة دى يا عوضين .. محصول القمح ازيه .

- عال والمحمد لله .. البركة فيك .

- رميت كپاوى قد ايه فى الفدان ؟

- كيس .. الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيه كپاوى .

- وكنت مشغل أنفاز كثير ..

- ثمان أنفاز فى الفدان .

وكنت انظر فى الدفتر واقرأ الأرقام العالية التى كتبها سرئيس افندى ..

كان من الواضح انه مسمر فى كل عملية على اساس انى لا افهم شيئا فى الزراعة .

وأغلقت الدفتر .. وأنا افكر فى حل ..

وحضر سرئيس افندى ومعه القرس وركبته وانطلقت ..

وتجولت فى الفيضان المجاورة أسأل الفلاحين .. وتأكد لى ان الخولى يسرق منى .. ومن عرق الفلاحين .. ومن كل حبة قح وعود قطن .

وعدت وقد صممت على شيء .

ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهده الى عوضين ..

وقلت لعوضين .. انى سوف اعطيه خمسة فدادين يزرعها لنفسه فى مقابل اشراقه على الاطيان وعمله كخولى عندى .

وبت سرئيس افندى ولم يتكلم .. ودعا لى عوضين بطول العمر .. وانصرفت الى البندر وأنا اشعر براحة .. وأحس بأنى رددت الامور الى نصايها .

ولمت فى اللوكاندة ..

ولكنى تيقظت فى الفجر على اليموض يأكل وجهى .. وعلى خير مفاجيء سرى فى كل البلدة .. ان عوضين وجد مقتولا فى حقله . والفاعل مجهول .

وحضر سرئيس افندى فى الصباح الى اللوكاندة .. وكان يحمل طينجة على صدره .. وبصاحبه خفير القبط . وقال لى ان عوضين وجد مقتولا .. الانسقياء قتلوه على تار بايت مسكين عوضين ..

وأردف وهو ينظر الى نظرة جامدة .

- تشوف حضرتك نعين مين خولى بدلله عشان يشوف الارض ؟ - اللى تشوفه يا سرئيس افندى .

- امرك يا سعادة اليك ..

وعاد ينظر الى نظرتة الجامدة الجافية وعيناه لا يهتز لما رمنش . وأجبتة وأنا اتجنب النظر الى عينيه :

- شوفها انت يا سركيس أفندى .. بس خد بالك من الحسابات
شويه .

- أنا محسوك يا سعادة البك .

ودار على عقبيه وخرج ..

وظلت خطواته تلاحقني وتدوى في اذني مدة طويلة ..

وأذكرني اليأس ..

ولم استطع ان ابرى نفسى من الجربة .

لقد قتلت رجلا ..

بعد ساعة من وصولي الصعيد قتلت رجلا ..

وتذكرت كلام الخواجة مرمى ..

ان الارض هي لحم الفلاح .. والذي ينتزع من الفلاح ارضه ينتزع
لحمه .. ولا فائدة من ان تقول للفلاح انت تغرق القانون .. لماذا يعنى
القانون بالنسبة لرجل جاهل ..

ان رجلي تغوصان في الطين .. وحياته ينهش فيها المراهي وينك
التسليف والمالك والمستأجر وسركيس أفندى .. كل واحد يطلق عليه
الرصاص .

ومر يومان على اقامتي بالصعيد .

النتيجة على الحاسط تقول اني في عام ١٩٥١ .. ولكن كل شيء
حولى يمضى ببطء جدا .. عشرات السنين وراء التاريخ .

القسوة في كل مكان .. في الحر .. في الزراب .. في الجفاف .. في
الارض .. في الفيضان .. في الوجوه .. في العيون .. في الثمن الذي
يدفعه كل انسان في مقابل اللقمة ..

الفلاح الذى يمرض مقدما بالبلهارسيا والمalaria والرمد قبل ان يعنى
وجوده .. ثم يمضى يلهث ويمر قديمه .. ويعزق .. ويحترق .. ثم يتنازع
جاره على قيراط برسيم ويقتله ..

والفلاح الآخر المحظوظ الذى يملك فدانا ويعيش كالجرادة على حافة
الترعة .. لا يعرف السيتا ولا الساعة ولا الدكتور .. ثم يضع حفنه من
تراب العذرة في عينيه .. ويعطيه رجل مبروك حجابا يعلقه على صدره
لينسقى .. بيتا يهب المبروك ليداوى عينيه في القاهرة عند طبيب
العيون ..

والتاجر الرقيق العبيط الذى ينظر الى البورصة كما ينظر الى السماء
والقدر .. وكرامات الاولياء .. ويفلس بغياء .. ويموت بغياء كما يموت
حماره دون ان يعرف السبب .

واين العمدة الوارث الذى يتفق امواله على راقصة في مصر ويموت
من الخمر والمخدرات .

كل هؤلاء يتبحون ويتعاونون .. كأنهم في غابة .
قسوة الحياة تبتز ارواحهم .. وأخلاقهم .. وتحومهم الى أجلاف
غلاظ .

وقد أحسست بهذه الظلمة تتسرب الى وتدفعنى الى رفع صوقي
بالسياب والشتائم .

سنة واحدة اعيشها هنا .. واصبح مثلهم .. اتكلم بقلطة .. وأقتل
وأسرق وأتهب ..

لقد نسيت ذقني فلم أعد أحلقها .. ونسيت هندامى .. ورباط
عنق .

ونسيت الرجل الذى قتل من اجلى .. عم عوضين .. الذى اطلقوا
عليه الرصاص .. لأنى اخترته ليدبر زواغى .

من الذى قتل عوضين !!

سركيس افندى !!

الحفراء بتحريض من سركيس افندى !!

انا ببقاى !!

الفدادين التى جئت اجرى من القاهرة لأجمع ايرادها !!

الحرق .. التراب .. الجفاف ..

لقد قيدوا الحادث فى دفتر البوليس ضد مجهول .. ولكنى ارى

المتهمين جميعا .. وأنا احدهم .. ليس فيهم مجهول واحد ..

ليس لى أن اتحدث عن الغلظة ..

ان القتل عمل غليظ فعلا .. ولكن تناول النقود المفسدة بالدم

وإنفاقها فى هدوء فى بارات القاهرة بين الرقص والضحك .. عمل أشد

غلظة ..

وشعرت باليأس .. وبالتفور ..

وشعرت بغلظة هذه التجارة التى تأتى أرباحها كل عام ..

وشعرت انى شريك فى كل الجرائم التى حدثت فى زمام العنانية ..

منذ ان وضعنا يدنا عليه ..

وعند الظهر .. كان سركيس افندى يتجول فى غيط القطن فى

مظاهرة من الاولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويقتنون .. وكان

يحاول ان يطمئنى على حسن ادارته وحزمه .. يطارد الاولاد ويشغط

فيهم ويجرى خلفهم بعضا قصيرة من الحيزران .. ويضربهم .. وكانت

الشمس مشرقة فوق رؤوسنا .. نلصقنا بشواطى من نار ..

وأغنى على احد الصغار من طول وقوفه فى الشمس وحملوه الى

الترعة ليرشوا على وجهه الماء .. وكانت يده النحيلة مضسومة الى

صدره تقبض على كسرة خبز جافة ..

واكتفيت بما رأيت .. ولم انتظر نزول المساء .. واخذت قطار المودة

الى القاهرة .. وقد صممت على ان اطلق هذه الارض الى الابد ..

وكان اول شيء فعلته حينما وصلت القاهرة هو انى كلمت نانى

لأقول لها :

- سوف اترك الارض نهائيا .. سوف ابيع فدانين وافتح ورشة

لاصلاح السيارات اعمل فيها كمهندس .. عمل الوحيد الذى أتقته ..

انا لا ائتمنى للأرض .. ليست لدى الشجاعة لأقتل وأسرق ..

ان رؤىة القسوة ترهقنى .. والاستمرار فى هذه الحياة التى اختارها

امى لنفسه مستحيل .. مستحيل .. بالنسبة لى ..

- وحياتنا .. والمستوى المادى الذى تعيش فيه .. كيف نترك

نروتك .. ولبن تتركها ..

- انى لا اتركها .. ان الفلاحين يضعون يدهم عليها .. يستأجرونها

ولا يدفعون ملجا .. ولا يستطيع ان افاضيهم .. لقد تبتت .. تعبت من

المناظر التى رأيها ..

- انت طيب اكثر من اللازم ..

- لست طيبا .. ولكنى لا استطيع .. لا استطيع ان اكون شيئا آخر

غير نفسى .. افضل ان اعيش حياة صغيرة املكها .. عن ان اعيش

حياة كبيرة تملكنى .. اريد ان اكون حرا .. اريد ان اقطع صلتى بكل

ما يفرض على واجبات لا احبها .. انا اكراه الواجبات كلها ..

- وهل تستطيع الخلاص من واجباتك كلها .. انى احاول الخلاص

من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا استطيع .. لا استطيع سوى

ان أجبن فقط .. الجنون هو الشيء الوحيد الذى وصلت اليه .. وأنا
لا اريد لك ان تحين مثلى .. تستطيع ان تتخلص من أرضك .. ولكن
ستبقى هناك واجبات على كتفك لا خلاص منها .
- نانى ارجوك ساعدينى .. لا تسدى أمامى المنافذ .. لا تبقي في
وجهى حائطا غليظا .. هات يدك لتحفر سويا حفرة في الجدار نهرب
منها الى عالم نجمة .

- نهرب الى اين .. انت تعلم .
- لا توقظين اذن .. دعيني احلم .. دعينا نحلم معا .. نانى ارجوك .
- يا حبيبى ..
- نانى ..
- يا حبيبى ..
- اريد ان استريح . ان اضع رأسى على صدرك وأسترخ .. ان
اجد نفسى بين ذراعيك .. ان اشعر بلحظة رضى .. انا اهت من التعب
هاريا من عالم لا اعرفه .. ولا احبه .. اليك انت .
- يا حبيبى ..
- تعالى يا نانى ..
وسكنت .. وصعنتا نيكى ..

- ٨ -

كنا وحدنا انا وهى ..
وكنت انظر في عينها في شغف .. ولا اسمح .. وأتطلع في ملامحها
الدقيقة .. وتعبيرات وجهها .. وغلجاتها .. وأستنتف نفسها .. وأهم
في وجودها وأندمج فيه في استمتاع وتلذذ عميق ..
وكانت نظراتنا تتسك وتثبت ببعضها .. وتلوذ ببعضها .. وتسعى
كئ الى كفها الصغير لتأخذ وتضم عليه في حنان ..
ثم ارفع يدها الى شفتى أقبليها .. وتنام شفتاى في باطن يدها ..
وأشعر بها تقبلى في خدى .. وأشعر بشفتيها تبحنان عن شفتى وهما
ترجمتان ..

وتلتقى في فرحة .. وتغيب عن وعينا .. وعن الدنيا .. وتذوب في
بعض .. في قبض من النشوة .. منتهى النشوة ..
احبك .. احبك جدا .. احبك طول عمرى .. احبك الى ان اموت
وبعد ان اموت .. وقبل ان اولد .. احبك .. احبك .. وما لزوم الكلام
والشعور يخفنا .. يسكننا ..

نانى . انا لا اريد شيئا سواك انت .. سوى هذه اللحظة .. تنتظر
قليلا لأنعم بها .. انا لا اريد ان اثيقظ على هذه اللحظة وقد انتهت افى
اجد فيها سبب وجودى .. لقد خلقت من اجل هذه اللحظة .. خلقت

لاكون لك .. نأى .. هذه لحظة تبدأ من عندها افراحي وألامى ..
وتلتق شفتانا فى فرحة .. فى لذة ..

هل انا احلم .. قبلى لافيق .. يل قبلى لاحلم اكثر ..
- يا مجنون .. يا مجنون ..

- انا لست مجنوناً .. انا كأعقل ما اكون طول عمرى ..
- اذن فأنا المجنون .. أنا .. انا ..

- انت حبيبى ..
- يا حبيبى يا مجنون ..

- قيم تفكرين ؟

- افكر فى انى ولدت من جديد .. وأنى اعيش معك فى عالم ليس
فيه سوانا .. عالم لا ينظر البنا فى حسد وحقد .. عالم لا يوظفنا من
سعادتنا ..

- لا اهمية للعالم مادامنا معا ..

وأسكت فى فى خوف وهى تتحسنى لتأكد من وجودى بجوارها
وهست :

- لماذا تتأخر الآمال هكذا دائماً .. لماذا تسقط الامطار بعد ان يموت
الزراع من الجفاف ..

- ان الزرع لم يموت .. انه ما زال يانعا مخضراً ..

ويكت على كتفى وهى تقول بصوت متهدج :

- يا وهى الجميل .. يا وهى الجميل ..

- أنا لست وهى .. انا حقيقتك ..

- ابدأ .. انت وهى .. انا لا استطيع أن امسك بك .. انت تفر
منى .. لا اجدك بجوارى ..

- انا بجوارك دائماً ..

- انت فى وهى .. فى قلبى .. فى مهجتي .. وسواد عيني .. ولكنك
لست فى بيتى .. لست فى وأقى .. عرق كفك ليس فى الفراش الذى
انام فيه .. شعرات رأسك ليست على وسادى .. ثيابك ليست مع ثيابى
فى سلة الغسيل .. بقايا الخبز الذى تأكله ليست على مائدتى ..
قصاصات الورق التى تتخلف منك لا أجدها على ارض غرفتى .. ولذك
ليس منى .. وولدى ليس منك .. صوت سعالك الحاد لا اسمعه فى
حجراتى الباردة .. أنا اعيش فى غربة .. اعيش على وهم وجودك على
امل رؤيتك .. هل تعرف كيف احبك .. هل تعرف كيف تحب المرأة
الرجل .. انها تحلم ان تكون سكنه وطعامه وشرايه .. تحلم بأن تجمع
شثاته على راحتها ..

ان الرجل يلثم المرأة فى شفتيها ثم يمضى فى طريقه .. اما المرأة فهى
تعيش فى تلك القبلة ..

أتعرف لماذا أتيت معك الى هنا .. لأتزوج من وجودك بمؤونة اعيش
بها .. لأزود وهى بثروة من الخيالات يتغذى عليها بقية حياته ..
لأتذكرك اكثر .. وأتعرف عليك اكثر .. وأخاطبك فى لحظات وحدتى
وصمتى ولكنى لن اعود الى هنا .. لن اعود الى لقاءك ابداً .. لأن هذا
ليس حى .. ليس انا .. ليس انا ..

واخذت تهزق بشدة .. وهى تكرر كلماتها بصوت متهدج .. هذا
ليس حى .. ليس انا .. لن اعود الى هنا ابداً ..

ثم انفجرت تيكى بمرارة ..

وصرخت وانا اضمها الى صدرى فى حنان :

- سوف نزوج .. سوف نزوج .. سوف أطلق زوجتى ..
وأنزوجك بعد أن يطلقك زوجك ..

ونظرت الى فى فزع هائقة بين دموعها ..

- مستحيل .. مستحيل .. هذا هو المستحيل .. لا يستطيع ..
ابدا ..

- ولماذا لا تستطيعين .. الا تحبينى ..

- وهست فى ضراعة ..

- نانى .. نانى ..

- اخاف من الله .. ومن رجلى .. ومنك .. ومن عيون اولادك ..
ومن عيون اولادى ..

- كل هذا لن ينعنى .. ولن يمتنع ..

- هناك شئ فوق كل هذا ينعنى انا ..

- ما هو ..

- نفسى .. أخاف من نفسى .. إن الماضى يتغلغل فى حواسى .. أنا
لم أتزوج زوجى كرها ولا غصبا .. لقد .. ارتضيت .. صحيح انى لم
أستطع أن أحبه .. ولكنى عاشته .. إن الرجال لا يعرفون العشرة كما
تعرفها النساء .. لأنهم يعيشون كل وقتهم فى الشارع .. ولكن العشرة
تتغلغل فى الجواس .. فى الدم .. فى اللحم .. ابنى لن أكون خالصة
لك .. سوف تعود حياق كلما دق علينا ولدى الصغير باب غرفة
النوم .. وكلما تطلع إلينا بعينيه الواسعتين فى تساؤل .. لن أستطيع أن
أسكته حين يقول .. بابا ..
انه أفعال التى تلهت خلق ..

وسكنت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت :

- وانت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة
لتنظر فى عينيها وأنت تلقى عليها اليأس .. وحينما يمسك الطفل بذيالك وأنت
خارج .. كيف ستجد القوة لتنفذ يده الصغيرة عن نوبك .. انه
أفعالك التى فعلتها .. كيف تنكرها ..

- لقد حدث كل هذا خلعة دون ادرى ..
ولكنه حدث ..

- سوف اتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك ..

- سوف تتحدى الدنيا كلها .. ولكنك لن تستطيع ان تتحدى
نفسك .. لن تستطيع ان تتحدى أفعالك .. ان أفعالك هى ذراعك ..

- سوف اقطع ذراعى لأصل اليك ..

- لا احب ان اراك مقطوع الذراعين .. لقد احببتك فى كمالك
وعذابك وضغفك .. ولم احبك وأنت تقتل وتقتل وتقطع رحمك
وأوصالك .. سوف تصبح رجلا آخر .. وسوف اصبح امرأة اخرى ولن
يتعرف كل منا على صاحبه .. سوف تكون شريرين ينتقم كل منا من
الآخر ..

- سوف احبك الى الأبد معها حدث ..

- اما انا فأعلم جيدا ماذا سوف افعل اذا تزوجتك ..

- ماذا ستفعلن ؟

- سوف انتقم منك ..

- انت مجنونة .. انت مجنونة ..

- انا لا أستطيع ان اخون نفسى .. انى احبك بنفسى .. وأتقرب
اليك بروحى وأعشقك من خلال روحى .. ولو خنت روحى فسوف
اخونك وأخون الدنيا ..

- انت لا تحبينى .. انت تكريهينى ..

وهنت لهذه الكلمة غرغ من شفتى ونظرت الى صامته وبكت ..
وأسكت بها من كنفها .. ورحلت أقبلها فى كل مكان من صدرها
وأهتف ..

- لن يكون فى الدنيا حب اذا لم تزوج ..

- ليس في الدنيا حب ..

- لا تقول هذا يا ناني ..

- ان الحب في قلوبنا وليس في الدنيا .. انه في وهنا فقط .. ان الدنيا لا تحمله .. ولا تستطيع ان تحققه .

- لا تقولوا هذا الكلام .. اني اخنق حينما اسمعك تردين هذا الكلام ..

- ان الواقع هو الذي يخنقنا جميعا .. ان الحب في قلوبنا عميق .. عميق .. ولكن الحب في الواقع يخنق بالسهوة والفسرة والانانية .. والمصلحة والعادة والملل والشجر وأنا لا اريد ان اخنق حسي لك بالواقع .. اريد ان احتفظ به في وهي وأغذى به خيالي ..

- سوف تكونين سكتي وبيتي وحياتي ..

- لقد فات الأوان .. لقد سقطت الامطار بعد ان جف الزرع لا تعذب نفسك وتعذبي معك .. ولا تثرثر كثيرا كالاطفال الصغار .. انظر الى .. احتضني بذراعيك .. دعني المسك هكذا .. دعني اقل بالانظر اليك .. دعني اتزود بمؤونه اعيش عليها العمر كله .

- وأخذت تنظر الى في هيام .. وكان في عينيها فرح .

- كانت في عينيها نظرات امرأة تودع شيئا لن تراه ..

- وأصابني عدوى الفزع الذي يطل من عينيها .. وأسكت بها أهرها .

- اننا سوف نلتق مرة اخرى .. سوف نلتق كل يوم .. كل لحظة .. أليس كذلك .

- وأجابني في نبرة جامدة ثابتة وهي تنظر في وجهي .

- اننا لن نلتق ..

- مستحيل .. مستحيل .

- انا لا احب هذا اللقاء المسروق .. انه ليس حسي ليس انا ..

- ليس انا ..

- سوف تزوج .. وتحقق الحب الكبير الذي تعلمين به .

- ان حسي يتحقق في قلبي وحده .. في وهي .. ان كل الامكنة

تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذي احتضنته في

ضلوعي .. وقد ضاقت الدنيا به على رحابها ..

- وانهارت تبكي .. وكل جسمها يرتجف ..

- ونظرت الى من خلال دموعها .. وغمقت ..

- لماذا أعذبك .. لماذا تركتني اعذبك هكذا .. لماذا لا تقتلني .

- ناني .. كئي هذيانا ..

- لماذا لا تقتلني ..

- ونظرت الى .. نظرت الى في شوق طفلة .. وهي تتعشقي بنظراتها .

- هل عندك حل ؟

- الحل هو ان اتزوجك .

- وضحكت ضحكة هستيرية وغمقت :

- ايها العجوز . انك لا تصلح زواجا لي .. اني ارفض ان اتزوجك .

- وقيلتي في جيبتي وهي تقول :

- اريد ان احفظ هذه المخطوط الرفيعة التي في جيبتي خطأ خطأ

حتى اذكركها كلها وأنا وحدي .. وأستحضر صورتك في خيالي ..

- وأراك أمامي هكذا .. وأنا جالسة وحدي في البيت ارتعف من البرد .

- ناني .. لماذا جئت معي الى هنا .. لماذا تقولين هذا الكلام ..

- ونظرت الى .. ولم تتكلم .. وضحكت ضحكة غريبة يمازجها البكاء .

- لماذا فعلنا كل ما فعلناه .. لماذا تمسكين بيدي هكذا .. كأنك

تتصبرينها ..

- اريد ان اتخلل يديك لأصل الى روحك .. اريد ان استولى على روحك .. اريد ان آخذ روحك ..

وضحك في حزن :

- انت تمديني ..

- الدنيا هي التي تمديني .. الدنيا هي التي خدعتنا .. الدنيا ادخلتنا في غرفة مظلمة لنتخار ملابسنا .. فلم نستطع أن نتعرف على ثيابنا في الظلام .. وخرجنا كل واحد بلبس ليسا غير ليه .. ثم تمزقت ملابسنا من ضيقها .. ولبيت هدومنا الحقيقية من طول وضعها على الرف .. وفي النهاية لم تبق لنا ثياب نستريح بها أنفسنا ..

- سوف تفصل لأنفسنا ثيابا جديدة ..

- سوف تفصلها من الحرق القديمة .. ولن تسترنا الا لحظات ثم تتمزق ثانية ..

- نافي .. لماذا تتكلمين بكل هذا اليأس ؟

- لأنني لا اجد حلا ..

- ولكنك تجديني الى جوارك .. أليس كذلك ..

ونظرت الى في ارباب وأخذت تحسني لتأكد من اني موجود فعلا ..

- نعم .. هذا انت كلك حولي .. كلك حولي ..

وامتلأت عينها دموعا ..

ودقت ساعة المائط عشردقات .. فرفعنا رأسينا في وقت واحد في فزع ..

- الساعة بلغت العاشرة .. لقد سرقنا الوقت .. يجب ان اعود حالا ..

وكانت الدقة الاخيرة ما زالت تدوي في اذني .. وكان صوتها كثيبا ..

ووقفت تسوي ثيابها وتصفف شعرها أمام المرآة .. وكانت تمسطين ظهرها .. وكان قلبي يبط .. يبط في ضلوعي .. حتى يصل الى قلبي .. وأسرت اليها احتضنها ..

- لا تنزلي الان ..

- كيف ؟

- ابقى لحظة .. اريد ان اكلمك قليلا ..

- ماذا تريد ؟

- اريد ..

وتلعثمت .. ولم أعرف ماذا كنت أريد ..

كنت أريد أن أقول أي كلام لأحتفظ بها أطول وقت أمامي .. اطلع إليها .. وأنسم عطرها .. وأرى شفتيها وهما تنفرجان .. وأرى عينها .. وهما تفتلان بالشوق ..

كنت أريد أن أسمع صوتها .. وهي تجاوبني بأي كلام .. وقلت لها في أسي :

- نافي .. لا اريد ان احس اني سوف افقدك .. ان هذا الاحساس يقتلني .. يقتلني ..

- انك لن تفقدني .. سأعيش لك دائما ..

- هل هذا صحيح ؟

- لا يوجد شيء صحيح في حياتي غيرك انت ..

- ولكنك ذاهبة الان .. أليس كذلك ؟

- اينما ذهبت فسوف تكون معي .. في كل بيت ادخله .. وفي كل كتاب افتحه .. وفي كل نغمة اعزفها ..

- لا اريد .. لا اريد هذا اللقاء .. انا اريدك انت لحما .. ودما ..

ونظرت الى في اشفاق .. ولم تتكلم ..

وخلف العيين المشفقين .. كانت تطل الحيرة .. حيرة لا حد لها .
كانت تسألني بعينها .. ماذا استطع ان افعل يا حبيبي .. انا احبك
وأريدك .. واغتناك .. ولكن ماذا افعل .. كانت تنسحب بي فانقطع . في
يديها .. ولا تجدى ولا اجدها .. وكلانا مسك بالآخر .
كنت اقرأ كل هذا في عينها .. وأنا أنظر فيها .. ويداي مطبقتان
على يديها ..

ولم اجد شيئا اقله ..

وصحبها في عريبي ..

ولبت صامتا طول الطريق ..

كنا سجينين نحن الاثنين .. سجينى عاطفة لا تستطيع الخروج في
الثور .. عاطفة تلوذ بالظلام .. عاطفة تعاقبنا على السعادة التي نسرقتها
بالسجن .. والحياة في الخفاء في فزع .

وكنت اتساءل .. لماذا تعاقب في جهنم .. والعذاب يتعقنا على
الارض .

الجزء يلحق بنا لحظة بلحظة .. قبل ان نلتقط انفسنا .

وكنت اتسر بالضييق .. وبالحرز .. وبأني مظلوم .. وأحسد الفضلاء
على السكينة التي يعيشون فيها ..

كنت أتعذب ..

ولم اجد ما ابته سخطى سوى العربة الحديد التي اركبها .. فضغطت
بقدمي على البزير وانطلقت اطيروا في سرعة خطيرة .. وكان الاحساس
بالخطر يريح اعصابي .. ويسكت الضجة التي في دماغي ..

وكانت نائي تنسحب بذراعي في خوف ..

- ماذا دهالك .. لماذا تسرع هكذا .. هل تريد ان تنتحر .. هل تريد
ان تموت .

هل اريد ان اموت . ربما ..

- هل تحبين الحياة ..

- نعم احبها .. لأنك فيها .

- هل تحزين من الموت اذا متنا معا ..

- لماذا تقول هذا الكلام . انت تفزعني ..

ونظرت الى بعينين واسعتين يغمرها الحنان ..

وارتاحت نفسى وأنا انظر اليها .

وكنا قد اقربنا من البيت .. فهدأت من السرعة .. وتوقفت ..

وكانت هناك عربة اخرى قادمة من الامام ..

وأضاءتنا بكشافاتها ..

وهست نائي في ذعر .. انه عزيز زوجي ..

ونزل عزيز من العربة .. ووقف ينتظرنا .. وكانت تيدو عليه
الدعشة .

لم أبرح البيت طوال ثلاثة أيام.

عصفت بي حوى الزمنى الغرائس .. ولبثت أهذى .. وأتلوى من آلام
حادة فى عظامى .. وأقلب فى طوفان من اللهب .. ثم بدأت أفيق .

وسكنت روحى مثل شرار القتب به الريح على شاطئ مهجور ..
وفتحت عيني لأجد زوجتى واقفة عند رأسى .. وفى يدها كوب من
الليمون .. وعيناها واسعتان .. مثل بحر من العسل على الختان ..
وأراحت رأسى على كفها لتستقي .

ونظرت الى عينيها .. وخارت قواى ..

وررت فى أذنى كلمات نائى .

كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة لتنظر فى
عينيها وأنت تلقى عليها اليمين .. كيف تجد القوة لتزع ولدك الصغير من
توبك وهو يتشبث بك عند الباب .. أنه فعلتك التى فعلتها ..

إنك تستطيع أن تحون الدنيا كلها .. ولكنك لا تستطيع أن تحون
نفسك .. لا تستطيع أن تنكر فعلتك ..

إنك حيناً تحون نفسك تحونى .. فأنت تحبى هذه النفس .. وتعشقى
من خلالها .. مستحيل .

ونظرت الى زوجتى .. ورأيت المستحيل ..

رأيت المستحيل فى البحر الساذج الخنون فى عينيها .. وسمعت صوته
فى بكاء ولدى .. وهو يتنادى ..

وتذكرت كلمات نائى .. وأنا أقول لها .. سأزوجك .. سأحقق الحب
الكبير الذى تحلمين به .. وهى تجاوبنى فى ضعف .

- ان حصى يتحقق فى قلبى وحده .. فى وهى .. ان كل الأمكنة
تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذى احتضنه فى
ضلوعى ..

كنت أشعر بهذا المستحيل فى تلك اللحظة ..

كنت أشعر بارادى تنكسر على عيني زوجتى وهى تنظر الى ورغباتى
تذوب أمام عريضة ولدى الصغير وهو يضع يده فى كفى ..
ماذا أفعل أمام البراءة ..

كيف أنظر الى البراءة فى عينيها وأصفعها ..

لا يوجد حل سوى أن أطوى ضلوعى على المستحيل .. وأعيش به
وحدى فى الظلمة .. أسجنه معى .. ويسجننى معى ..

يُسْت تماماً ..

وكانت زوجتى تحمىنى فى نبرة أسمى :

- هل سمعت الصراخ أسمى ؟

- أى صراخ ..

- لقد كنت محموماً ..

- ماذا حدث ؟

- لقد تشاجر عزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها .. وسقطت

الكوب من يدي .. وغامت عيناى .. وأظلمت الدنيا أمامى فترة .

وأفقت لأجد زوجتى تدلك خدى .. وترتب على شعرى .. ولم تفلتن

الى سبب المي .. لأنها عادت تقول فى حزن :

- مسكينة نانى .. ان زوجها رجل متوحش ..
وسمكين أنا أيضا .. يا ليتنا تعلم كم أنا مسكين ..

وفى الظهر تلقت هذا الخطاب من نانى :
أكتب لك يدي اليمنى . وبدي اليسرى فى الجبس .. شكرا لله .. انه
أبقى لى بدا سليمة أكتب لك بها .
لقد ضربنى زوجى وكسر ذراعى .. مسكين انا لا ألومه .. ولكنى
ألوم نفسى .. فقد كنت قاسية فى معاملته ..
أرهقنى يشكوكه وأسأله وسبابه وفظاظته وغلظته .. حتى جن جنونى
وتناولت عليه .. ففقد صوابه وهجم على كالوحش .. وأخذ يضربنى
حتى كسر ذراعى ..
ليه أنى على البقية الباقية منى .. لاسترحت .. ليه اسكت قلبى
الذى يتف باسبك ..

إن وجودى يرهقنى ..
ان عواطفى تصرخ .. وأنا عاجزة عن ضبطها .. عاجزة عن
اطلاقها .. أسير فى الحياة كدمية مشطورة نصفين .. نائمة مترددة ..
نصف نائمة نصف مستسلمة .. أقوم بأفعال لا أقتنع بها .. وأقتنع
ببإدائى .. لا أعمل بها .. ضائعة .. ضائعة تماما .. أملى الوحيد
مستحيل
لقد ظلمت أفكر بعد أن افترقنا .. كيف أوتيت المرأة لأفعل كل
هذا .. كيف خرجت من بيتى لأقابلك ..
كيف جرؤت ..
ولكنى الآن أعرف كيف حدث هذا ..

ان العذاب الذى أعيش فيه افقدنى القسرة على التمييز .. كنت
كالهكوم عليه بالاعدام الذى أباحت له الحكمة ان يطلب طلبا قبل ان
يموت :

لقد اهدرت الظروف السيئة حياتى .. واستباحتم دمنى .. وطاردتى
حتى سلم المقصلة ..
ماذا هناك أكثر من ان تقطع رأسى .. لاشئ ..
وطلبت أن أراك ..
طلبتك قبل أن أموت ..
طلبتك وأنا أختنق فى غرفة الغاز ..
وأحسست لفترة وجيزة أن أى شئ من حقى .. أى شئ .. حتى
أنت ..

آه .. يا الهى ..
انى استطع ان اخاطبك انت وحدك .. ولكنى لا استطع ان اخاطب
الناس ..
أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى .. لا أحد يفهمنى
سواك ..
أنا ساقطة فى نظر الناس ..
ولكنى أعيش فى جهنم ..
جهنم .. هى حياتى ..

لقد دفعت غن خطيئتى فى الدنيا .. ونفذت العدالة أمرها فى
مصري ..
انتهى أمرى ..

لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة .. بل أنا العقاب نفسه ..
ان الخطيئة شقائى وليست لذى ..

انى أحسد الفضلاء ..

ان الفضيلة أمان وسكينة وحرية وسعادة ..

انها الجنة .. انها مكافأة جميلة .

انا اعجب للفضلاء ينتظرون ان يكافأوا على فضيلتهم بالجنة .

أنى جنة .. وهم فى الجنة قعلا .

يا حبيبى ..

أجل نئى فى هذه اللحظة انى وحدى .. لا نئى معى سوى خيالك .

أفتلك أمامى بقامتك الطويلة .. ووجهك الأسمر الرقيق .. وعينيك

المحترنين وهما تندفقان حنانا وطيبة .. وأسمع صوتك الأجنس .. ونبراتك

الرحيمة .. وأعيش فى انسجام مع روحك .. اغل برؤية نفسى فى

مرأتك .. فى كلامك .. وخطواتك .. ولفتاتك .. وضحكاتك .

الساعة التى قضيتها معك .. تزودنى بيزاد من الموسيقى لا ينفذ ..

يلا سعدنى بالانعام .. ويكتفى لى جمالا خفيا وراء كل نئى .. أنسمه

بحواسى فى لذة .

فكرت كثيرا لماذا أحبك كل هذا الحب .

لم أعرف ..

ربما لأنك حريتى ..

ربما لأنك ارادتى التى فرحت بها لأول مرة وأنا أقتحم بها الظروف

وأحطم كل ما حولى من خير ومن شر لأصل إليك ..

ربما لأنك أنا .. وقد ظفرت بك .. وبنفسى فى ذات الوقت ..

ولو أننى قد اخترت زوجى بكامل حريتى .. لما أحبيتك .. ولما

عرفتك ..

أنانية ..

ولكن لا ..

انها ليست أنانية الى النهاية .

هناك سر آخر ..

سر فى الدنيا .. كشفت لى عنه فأصبحت أحبها .. وأشعر بحبها

وأهتز لنسائتها .. وأتألذ بالحياة فيها ..

سحر خفى فى الوجود دلتى عليه حبك ..

ما أكثر ما يستطيع الحب ان يفعل .

انى أنذكر حال زوجى منذ سنوات حينما كان يحب اخفى .. كيف

كان يضى بشفاقية حلوة .. وكانت أساريره تضحك فى طلاقة ..

وحركانه تنساب فى خفة ومرح ..

وأناأمله الآن .. وهو نقيل معتم جامد غليظ .. يتحرك فى لزوجة

وبطء .. الكراهية تنسج فى جسمه كما تنسج الرطوبة فى المفاصل ..

كيف أنشعر أحيانا وهو ينظر الى .. انه سوف يقتلنى .. كيف أحاول

المستحيل لأنهم دون ان أستطيع وكأنه من مادة أخرى لا أستطيع

الامتزاج بها .. مادة ثقيلة ترسب فى نفسى ولا تذوب ..

كيف تتعاصر منذ سنوات .. ونحن منفصلان .. نتلامس بالجسم

فقط .. يجمعتنا الاشفاق أحيانا .. فأصدق عليه .. وأنا أناأف .. كأتى

أخرج دواء مرأ .. ثم أعود فأثور عليه وأتألذ بحمراته وتعذيه .

والآن .. وأنا أحبك .. كيف أنشعر أحيانا .. انى احب كل ما فى

الدنيا .. وأنى أحبه .. حتى هو أيضا .. وأزداد قربا منه ومن

أولادى .. وبيتى .. وأشعر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا ..

حبك رد لى قدرق على أن أحب .. وأعطى .. ومنحنى القوة

لأغتفر .. وأعمل ..

ان الكراهية شيء فطيع يوقف الدم في القلب ..

وقد عشت طول عمري أحارب الكراهية بدون سلاح .. أحاربها وأنا
أكره ان احاربها .. وأكره نفسي .. كنت تعيسة .. تعيسة جدا أنص من
أن أدافع عن حياتي ..

ولكني الآن أحارب الدنيا .. بك ..

فكرت فيك وأنا أنام ..

واكتفيت وأنا أغمض عيني بأن افكر فيك واعيش في معنى
وجودك ..

ولم يحظر بيالي ان أذهب اليك بحسبي .. وأحاول ان أقابلك ..
كان شعوري يحوكم .. وشعوري نحو نفسي .. أكبر من ذلك الأجر
الزهد الذي تعدني به هذه المقابلة ..

كان ملتقانا في الخيال .. أرحب بكثير من الغرفة التي التقينا بها في
الواقع .. وكانت مسرق بك أعمق ..

لا .. ليست الفضيلة .. كما تبادر الى ذهنك .. هي التي تمنعني من
أن اسمي اليك .. فأنا لست امرأة فاضلة .. وإنما حسي هو الذي
يمنعني .. إحسناسي بأن أي لذة أفوز بها معك بالجسد لن تطفئ عطشي ..
ولن تساوي عطشي .. وكل ما ستفعله .. انها سوف توسع هوة
المستحيل التي تقف نحن الاثنان على حافتها .. وتزيد حسرتنا ..
وبأسنا .. وعذابنا ..

وطمعت في أن أفوز بك كاملا هو الذي قعد بي في مكاني لا أبرحه
ولا أحاول أن اسمي اليك لأنفاسك .. ولا أرغب في هذا القسط الزهيد
من اللذة ..

لم أكن فاضلة ..

كنت أريد اللذة كلها .. ولم يكن يشبعني قسط منها .. لم تكن
تسبعني رشفة من حافة كأسك .. أو لسة من وجودك .. ولهذا أنرت أن
أعيش في معنى وجودك .. مع صورتك وفكرتك ..
شكرا لك ..

إن حيي لك يحميني منك ويحميني لك ..
ويحميك انت أيضا لي .. كأجل ما تكون مع زوجتك وولدك ..
إن الحب شعور طيب مهما كانت صورته .. ولا يمكن للواقع ان
يساومه .. لأن الواقع أضيق منه وأرخص .. ولو أني أصبحت زوجتك
فلن يجد حيي لك كفايته .. وسوف يفتنني في التعامل اليومي المبتذل مع
الطباخ واليواب والبقال ..

إن الحياة قاسية .. قاسية ..

الحياة تدوسنا .. وتدوس مشاعرنا .. وتدوس أحلامنا .. كل شيء
يتحقق فيها تسقط قيمته .. حتى المادة نفسها .. حتى النقود .. تظل
حلما جميلا حتى نكسبها وننفقها فنسقط قيمتها وتصبح شيئا عاديا نرميه ..
ونتخلص منه بالقرار ..

أنا أكره الواقع ..

وأحبك انت أكثر من الواقع ..

وأكثر من الحياة ..

وأحب حيي أكثر منك .. وأكثر من نفسي .. وأصعد به الى سماوات
أجل من نفسي ومن الدنيا .. سماوات مضيئة في داخلي .. تمنحني
السعادة .. والسلى .. والعزاء ..

يا حبيبي يا أجل ماني دنياي .. أنا أحبك الحب كله .. فلا تحبني
الحب الصغير الذي لا يذكرني الا حينما يجوع الجسد ونجوع العينان

ونجوع اليان .

أحبني الحب الكبير .. الذى ليس له حل .. وليس فيه شيع ..

وليست له وسائل ولا أوقات ..

الحب المستمر مثل الوجود .. الحاضر في القلب مثل المحققان ..

المتصل كالأنفاس .. في النوم واليقظة ..

لا تحاول ان تسمى الى لقاء مسروق لتشيع جسديك وعينيك مني .

ان هذا اجر زهيد لا أقبله .. لكل هذا الحب الذى أحبه لك .

سوف أحزن كثيرا .. اذا حدث هذا .. سوف أتعذب .

سوف تعذبني وحدتي من جديد .. وحدتي في حب لم يجد صداه ..

ياحبيبي يا أمل .. لا تخذلى ..

دمت لى .. ولولئك .. ولزوجتك .. وسعدت في كل اوقائك ..

« ثانى »

قرأت الخطاب مرة .. ومرتين .. وثلاثا .. وأربعا .. ولا أدري كم مرة

بعد هذا كنت أقرأه .. ثم أضعه الى جوارى ثم أعود فأقرأه .

وكأنى أجري وألث .. في طريق ليس له آخر .. أسمع صوتها يرن

حولى .. ولا أجدها .. مثل الروح تملأنى ولا أراها ..

مثل روحى أنا ..

قريبة .. ومستحيلة .

- ١٠ -

منذ شهر وأنا أعمل في ورشة السيارات التى فتحتها .. كل يوم من الصباح الى المساء .

أشعر بلذة من الانتهاء في عمل .. وأشعر بسعادة لأنه عمل ..

أوظف فيه خبرتي وذكائى وبجهودي دون وساطة أحد .. أنا والآلة نقف

وجها لوجه .. أفكها .. وأضبطها .. وأحكمها .. وقد تطورت العلاقة

بيننا الى صداقة فأنا أصادقها كأنها آدمى له قلب وأحشاء ولحم ودم .

تمت اليوم وأنا راكع تحت احدى العربات لو انى استطعت ان أفك

نفسى وأعيد تركيبها ..

تمتت لو أنها طاعتنى ..

ان الحديد يطاوعنى ولكن قلبي لا يطاوعنى ..

أنا أبث عقلى في الآلة فتتحرك .. وتنظم .. ولكنى عاجز عن أن

أبث عقل فى عاطفتى .

أشواق تحرقنى .. صوتها يرن في أذنى على الدوام .. روحها تحكنى

وتسلبنى الارادة ..

أتمس الهدوء لنفسي فلا أجده .. كيف أنساها .. كيف أروض نفسي

على الحياة بجوارها دون أن أطلبها .. كيف أطلق ضرام الرغبة .. ولهب

الحنين .. وعقل .. حتى عقل يشتهيها ..

إنها تجد الحصانة منى في حيا لى .. قال أنا لا أجد حصانة منها في
حي ..

حاولت ان أجعل نفسى على هذه القداسة التى أستغنى بها عن لذات
الحواس .. ولكنى لم أستطع .. غلبتني بشرى ..
أحتقرت نفسى ..

كنت أذهب أكثر من مرة الى التليفون .. ثم أعود أقف أمامه في
خوف وتردد .. أمد يدي ثم أردتها ..

وأحيانا كنت أرفع الساعة وأدير القرص على رقم أو اثنين ثم
لا أجد الشجاعة لأستمر فأضع الساعة من جديد .. وكنت أجد في
ادارة الأرقام لذة ليجرد انها تنتمى اليها .. وكان اسمها على لسان زوجتي
بحركتي .. كأنه كائن حي ..

وكانت الموسيقى تعذبني .. تذكرني بها .. بتقاطيعها .. بصودها
التحليل .. ومشيئها المنسجمة ..

فكرت كثيرا في خطاياها الأخير .. وفي كلماتها ..

كيف صعدت الى هذا الصفاء المعنوى ..

مالذى شدها الى فوق ..

العذاب !!

المستحيل !!

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع .. كان الواقع يشدني .. ودينيا
الحواس تعذبني .. وتبدو لي أكثر اقناعا ..

كانت بيننا مسافة انسانية .. هي العذاب الذى تعذبه ..

سافرت الى الاسكندرية لأغرق همومي في صخب المصيف .. ولكن

الأمر لم يتغير كثيرا ..

كان الضخب يطفو على سطح وجودي .. والحوادث تجري حولي
كأنها على شاشته .. معزولة عن نفسى .. لا أتعاطف معها الا بحاملة ..
دون أن أمتزج بشئ فيها بالقلب ..

قابلت الأستاذة فاطمة المحامية .. وكانت تمشي وحدها بإعياء .. تحيلة
شاحبة تحت عينيها غضون سود ..

لم اعرفها في البداية حتى سلمت على .. فأخذت أدور بعيني في
جسمها باحثا عن الاستدارة الجميلة التى كنت أراها مرسومة تحت
الفتتان .. والصدر الرجراج الشهى الذى كان يكظ من فتحة
نوبها ..

كانت تبدو كجذع نخلة سقطت غارها ..

طلبت منى أن أوصلها للفندق لأنها متعبة .. والمقص عاودها ..

ذهبت معها الى غرفتها .. وطلبت الطبيب ..

تذكرت الليالى التى قضيتها سويا .. وأنا استمع الى صوتها
المبلل .. تذكرتها كأنما أتذكر سرايا ..

- كيف حالك يا حلى .. يحيل الى أن سنوات مضت دون أن
أراك ..

- نعم .. سنوات ..

- تبدو مهموما .. ليست هذه عادتك ..

- هموم الحياة ..

ولم أشأ أن أخبرها بشئ من هموم الحياة .. ولكنها قالت في فضول :

- لم أكن أعتمد أن الهموم تستطيع أن تتالك .. كنت تبدو لي دائما
رجلا قويا ..

- ان الانسان لا يستطيع أن يعيش الى الأبد قويا .. اليس كذلك ؟

- ماذا تعنى ..

أنت لا يبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان ..

- أنا ..

واكتست عيناها بالحزن وأردفت في نبرة كسيرة ..

- أنا لم أكن أبدا قوية .. أنا كنت دائما اقتل نفسى .. طول عمرى

وأنا اقتل نفسى .. لم أجد أحدا ينقذنى ..

- لقد قتلت كل من حاولوا انتقاذك يا فاطمة .. أنت تعلمين جيدا

كيف كانت حياتك ..

- نعم أعلم ..

وسكنت ثم أردفت في يأس :

- لا فائدة .. لم يعد هناك فائدة ..

- لا داعى لكل هذا اليأس .. ان الانسان يستطيع أن يبدأ من

جديد .

- أنظن هذا ..

- أكيد ..

وفي الحق لم أكن متأكدا ..

- أشكرك على هذا التشجيع .

وأردفت بعد لحظة :

- ماذا كنت تقول حينما كنت تتذكرنى يا حلمى .. امرأة سيئة ..

أليس كذلك .. لا تحاملى أرجوك .. قل الحقيقة .. انهم جميعا كانوا

يقولون عنى امرأة سيئة ..

ولم أقل لها أنى لم أتذكرها الا اليوم .. وإنما قلت مجاملا :

- كنت أتذكر اللحظات الجميلة التى عشناها معا ..

- شكرا .. يا لك من ولد رقيق جميل .. كم كنت أحبك ..

وقلت لها باهتمام :

- قولى الحقيقة يا فاطمة . هل كنت تحببى .. لقد فات أوان الكذب .

وأجابت فى ملل :

- يا ولدى الصغير .. أنا لم أحب أحد .. ولم يحبنى أحد .. لا يوجد

رجل فى الدنيا أهل للحب .. أنت تعلم بأشياء لا وجود لها ..

- ألا تشعرين بالشقاء وأنت تقولين هذا الكلام ..

- دعك من التفلسف .. وقل لى .. هل أحببت أنت ..

- نعم أحببت ..

- ومن هى الساذجة التى خدعتها يا ترى ؟ ..

- أنا لم أخدع أحدا .

- إذن فقد خدعت نفسك .

- وما الذى يدعوك لأن أخدع نفسى .

- لتخلق قصة وهية تجعل بها حياتك .. أليس هذا هو الحب .

- إن الحب هو الذى خلقتى .. ولست انا الذى خلقتك .. أنا

لا أستطيع أن أخلق حبا ..

- هذه اشعار .. ان الواقع غير هذا ..

- وما هو الواقع عندك .

- الحب فى الواقع هو العذر الذى تلجأ اليه لنقضى وقتنا طيبا فى

الفرش .. انه الكلمات الشبهة التى نقوها لبعض ثقل على الأكل

بنفس مفتوحة وتصنع لأنفسنا جوا من المحاسن ننسى به الوقت ..

- لستنا فى حاجة لأعذار لتجتمع فى الفراش .. ان الضريرة تعتذر

بالتبابة عنا .. وهى تتكفل بخلق المحاسن اللازم وأكثر ..

- لا مانع من أن نطلب مزيدا من البركة ..

- ان لقاء الفراش قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب .. وقد لا يتم بالمرّة .. ويقوم الحب بدوره .

- هذا كلام فارغ .

وشعرت ان كلامي يضايقها .. فسكت .. ودخل الطبيب .. وفحصها .. وكما حدث في المرة السابقة .. وقف يصمص شفته في استغراب .. ويقول انه لم يجد شيئا ذا بال .. ربما كان احتقاناً أو برداً في المعدة .. أو أى شئ ناهل لا يدعو للقلق .. ولكنها كانت تتلوى من الألم وتطلب حقنة مسكنة .

وفتح حقيبته وأعطاهها الحقنة .. واستمادت روحها .. ومرحها . وقالت مداعبة :

- والان احك لى عن حبك يا صغيرى .. فقد مضى على وقت لم أجمع نكتة ظريفة .

- ان حبي ليس نكتة ..

- حسناً أخرج منديلك لتكفكف به الدموع .. وأحكى لى عن تراجيديا غرامك .

- ألا تستطيعين ان تتكلمى عن شئ دون أن تسخرى منه .. ألا تتصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة .. ولو على سبيل الصدفة .

- أى حقيقة .. ان الدنيا كلها كذب في كذب .. انها نكتة .. انها سخف لا يحتمل .

- ومع هذا فيبدو انك حريصة على التمتع بهذا السخف والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة ..

- وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه ..

- ألم يخطر بذهنك ان السخف قد لا يكون في الدنيا .. وإنما قد

يكون في طريقة حياتك لهذه الدنيا ..

- هذا وعظ مسيحي جميل .. يبدو ان صاحبك راهبة في الفرنسكان .

- انت أسوأ دعابة لأرائك فن الواضح انك لم تستطع ان تبلى بهذه الآراء أى راحة أو سعادة وهذا انت بعد ثلاثين سنة .. وحيدة لا رجل .. ولا زوج .. ولا ولد .. ولا بيت .. ولا حتى صديق .. وحيدة مريضة في فندق مهجور وفي بلد لا تعرفين فيها احدا .. هل هناك فنسل أكثر من هذا لك ولأرائك .. هل يمكن ان يعاقب انسان على أنامه بأكثر من هذا ..

ويبدو ان كلامي كان قاسياً لأنها سكنت .. وشحب وجهها .. وظهر عليها الحقد والمرارة واليأس ..

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة .. تبكى .. وتشد شعرها ..

- حلمى .. حرام عليك .. لا تقتلى .. لا تقتلى ..

- انا مسكينة .. مسكينة .. انا في حاجة إلى العطف والحنان ..

- لن تجدى العطف والحنان إلا اذا أعطيت العطف والحنان .

- انا غير قادرة على ان اعطى احداً شيئاً .. انا لا املك عطفاً ..

- ولا أملك حناناً .. انا مسكينة .. مسكينة ..

وظلت تردد كلمة .. مسكينة .. مسكينة .. مدة طويلة حتى استراحت وهذأت فسحت دموعها ثم قالت في صوت ضعيف هامس :

- حلمى انت لا تعرف عني شيئاً ..

- انا اعرف ما يكفينى ..

- ابداً ..

وسكنت لحظة .. ثم عادت تبكى في سكون .. وقالت في وجل

وتردد ..

- سوف اقول لك حقيقة لا تعلمها .. هل تعرف سر هذه النوبات
من الغص التي تنتابني ..

وسكنت .. وترددت ثم قالت بصوت مضطرب ..

- اني اتحايل بها لأحصل على حقن المورفين .. انا ادمن المورفين من
زمن طويل ..

وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى تماما ..

وأحسست بالإشفاق الشديد نحوها ..

- يجب ان تدخل مستشفى لتعالج نفسك من هذا الإدمان المدمر ..

- لا فائدة .. سوف اعالج الادمان .. ولكن كيف اعالج حياتي ..

كيف احتملها بدون ان اتجرع السم كل يوم .. كيف اعيش بلا حب
بلا هدف بلا ايمان .. بلا معنى .. بلا إله .. كيف احتمل حياة كلها
عبث في عبث ..

لماذا لا تتكلم ..

- ماذا استطعت ان اقول لامرأة لا تنسرح أن في عالمها إله .. كيف
ادخل لها النور .. وقد اغلقت كل النوافذ ..

- انا لا اريد اله .. انا اريد رجلا يحبني وأحبه رجلا يحبني بكل
قلبه ..

وعادت تبكى ..

طسول الطريق أثناء عودتي من الاسكندرية كنت أفكر في ناني ..
عصفور جميل سجين .. بين جدران أربعة من المستحيل .. لا يملك حريته
ولا خبزته ولا جسمه .. يغني .. لأن لمسة من الحب لمست روحه
ففاضت بالحنان والجمال .. وأحببت كل شيء .. حتى الألم وجدت له
ميررا وعذرا ..

وفاطمة التي ترح طليقة كما تشتهي تشرب السم تتوت ببطء يائسة
وحيدة تعيسة ..

بدون حب ..

يا ويلنا بدون حب ..

وأحسست بالشوق .. بالشوق اليهم الى الصعود حيث توجد حبيبتي
في ملكوتها وجمالها ..

وكان الشوق يسحقني يذيبني ..

وكان اول شيء فعلته حينما وصلت اني جريت نحو التليفون واغلقت
الباب .. كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده ..

ورفعت الساعة وادرت القرص على ارقامها الخمسة .. ثم جئت
فوضعتها وانا ارتجف .. ثم عدت احمل في الآلة السوداء .. والمشاعر
تنخطفني .. ولبثت فترة .. ثم عدت فأدبرت الرقم .. وصمعت صوتها
رائقا .. صاقيا .. حلوا ..

- ناني .. اريد ان اراك ..

ولبثت صامتة لحظة .. ثم اجابت في صوت متهدج يذوب حيا :
- يا حبيبي .. اني اراك .. اراك انت وحدك .. ولا أرى شيئا
سواك .. ارى بك الدنيا كلها .. اراها في ضوئك ..

- ناني .. انا اريدك ..

- يا حبيبي لا تخذلي ..

- اني احبك .. احبك ..

- ان احبك جعلني ملكة .. فلا تدعه يحطلي جارية ..

- انا احبك ..

- انا اعيدك .. انت روحي .. اراقت .. امل ..

- كن اراقت الكبيرة ولا تكن اراقت الصغيرة ..

- انت لا تحبيني كما احبك ..

إعادة الرفع تمت بواسطة :

محمد بحيرى

WwW.Faceb00k.Com\KemyaV

شكر خاص

مهندس / حامد على بكير

.. انا احبك اكثر مما تحبى ..
وسكنت لتلهث .. وغطف انفاسها .. كأنها كانت تجرى شوطا
طويلا ..
وأحسست بلهنتها تنبع من بعيد .. ومن قريب .. من قريب جدا ..
من روحى ..
وأحسست انى صغير جدا الى جوارها .. ولم اعرف كيف اعتذر ..
.. ساعدنى لأحبك كما تحبينى ياملكتى .. لن اجعلك جارية ايدا ..
ايدا .. سوف اكون ارادتك .. إردائك الكبرى .. وأحمل أحلامك ..
.. يا حى .. يا حى .. يا حى ..

وظللت برهة سكاكنا .. لأحس بوجودى فى الدنيا .. ثم بدأت
أفنى ..
وذهبت الى عمل .. وظللت انشغل الى وقت متأخر من الليل ..
وعدت مرهقا .. لأعتمد فى فراشى .. مفتوح العينين فى الظلام ..
أذكرها وأذكر كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأتس منها القساسة ..
والنجاة .. وأتوسل بها الى الجزء الأسمى من وجودى .. وأصعد إليها ..
على درجات المستحيل درجة .. درجة .. يأخذ حبها بيدي .. الى حيث
اجل لذاتنا ..